

٤ - سورة النساء

مدنية وآياتها ست وسبعون ومائة

قال الموفى عن ابن عباس: نزلت سورة النساء بالمدينة، وقال عبد الله بن مسعود: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى أن لي بها الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية، و﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، و﴿لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ الآية، وقوله ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ رواه ابن جرير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ﴿١﴾

يا رب الله تعالى خلقه بتفواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنبهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها ﴿من نفس واحدة﴾ وهي آدم عليه السلام ﴿وخلق منها زوجها﴾ وهي حواء عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فرأها فأعجبه، فأنس إليها وأنست إليه. وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس: خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها في الرجل، وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته في الأرض فاجسوا نساءكم^(١)، وفي الحديث الصحيح: ﴿إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمعت بها استمعت بها وفيها عرج﴾. وقوله: ﴿ويث منها رجالاً كثيراً ونساء﴾ أي وذراً منهما: أي من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر، ثم قال تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ أي واتقوا الله بطاعتكم إياه، قال مجاهد والحسن: ﴿الذي تساءلون به﴾ أي كما يقال أسألك بالله وبالرحم، وقال الضحاك: واتقوا الله الذي تعاقدون وتماهدون به واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن يروها وصلوها قاله ابن عباس وعكرمة. وقرأ بعضهم: ﴿والأرحام﴾ بالخفض عطفاً على الضمير في ﴿به﴾ أي تساءلون بالله وبالأرحام كما قال مجاهد وغيره.

وقوله: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم، كما قال: ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ وفي الحديث الصحيح: ﴿اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك﴾، وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة، ليعطف بعضهم على بعض ويحشهم على ضعفاتهم، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث (جرير بن عبد الله البجلي): أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر - وهم مجتابو الثمار أي من عربهم وفقرهم - قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر، فقال في خطبته: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ حتى ختم الآية، ثم قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ ثم حضهم على الصدقة، فقال: ﴿تصدق رجل من ديناره، من درهما، من صاع بره، من صاع تمره﴾^(٢) وذكر تمام الحديث.

(١) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٢) هو جزء من حديث أخرجه مسلم وأصحاب السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة.

﴿وَمَا أَلَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تَقُولُوا لَا قَدْرَ لَكُم مِّنَ الْبِرِّ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِرًا كَانَ حُرْمًا كَبِيرًا ﴿١﴾ وَإِن
خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْبَيْتِ فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَعَهُنَّ وَكَذَلِكَ نُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِنَا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ وَإِن كُنْتُمْ
أَيُّكُمْ يَتَّقُونَ فَالْيَمَانَةُ أَغْلَبُ وَإِن كُنْتُمْ يَتَّقُونَ فَالْيَمَانَةُ أَغْلَبُ وَإِن كُنْتُمْ يَتَّقُونَ فَالْيَمَانَةُ أَغْلَبُ ﴿٣﴾﴾

بأمر تعالى بدفع أموال البيتامي إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم، ولهذا قال: ﴿ولا تبدلوا الخبيث بالطيب﴾. قال سفيان الثوري: لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قدر لك، وقال سعيد بن جبير: لا تبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تبدلوا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام، وقال سعيد بن المسيب: لا تعط مهزولاً وتأخذ سمياً، وقال الضحاك: لا تعط زيفاً وتأخذ جيداً، وقال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم، ويجعل مكانها الشاة المهزولة، ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد وي طرح مكانه الزيف ويقول درهم بدرهم. وقوله: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾، قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً، وقوله: ﴿إنه كان حروباً كبيراً﴾ قال ابن عباس: أي إثماً عظيماً. وفي الحديث العروبي في «سنن أبي داود»: «أغفر لنا حوبنا وخطايانا» وروى ابن مردويه بإسناده عن ابن عباس: أن أبا أيوب طلق امرأته، فقال له النبي ﷺ: «يا أبا أيوب إن طلاق أم أيوب كان حروباً» قال ابن سيرين: الحوب الإثم، وعن أنس: أن أبا أيوب أراد طلاق أم أيوب، فاستأذن النبي ﷺ فقال: «إن طلاق أم أيوب لحوب» فأمسكها. والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه.

وقوله: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في البيتامي فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى﴾ أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها، فإتتهن كثير ولم يضيق الله عليه، وقال البخاري عن عائشة: أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها وكان لها علق، وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا﴾ أحسبه قال: كانت شريكه في ذلك العلق وفي ماله، ثم قال البخاري: عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في البيتامي﴾ قالت: يا ابن أخي هذه التيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بنير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمرنا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله: ﴿ويستفتونك في النساء﴾ قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال.

وقوله: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ أي أنكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم اثنين، وإن شاء ثلاثاً، وإن شاء أربعاً، كما قال الله تعالى: ﴿جاءل الملائكة رسلاً أولي اجتحة مثنى وثلاث ورباع﴾ أي منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ولا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه، بخلاف قصر الرجال على أربع فمن هذه الآية كما قال ابن عباس وجمهور العلماء، لأن المقام مقام امتنان وإباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره، قال الشافعي: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة، وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء، إلا ما حكى عن طائفة من الشيعة أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع، وقال بعضهم: بلا حصر. وقد يتمسك بعضهم بفعل رسول الله ﷺ في جمعه بين أكثر من أربع إلى

تسع كما ثبت في الصحيح، وهذا عند العلماء من خصائصه دون غيره من الأمة لما سذكروه من الأحاديث الدالة على الحصر في أربع، ولتذكر الأحاديث في ذلك: قال الإمام أحمد عن سالم عن أبيه: أن (غيلان بن سلمة الشافعي) أسلم وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعاً»، فلما كان في عهد عمر طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع يموتك فقتله في نفسك، ولعلك لا تلبث إلا قليلاً، وإيم الله لتراجعن نساءك ولترجعن مالك أو لأورثهن منك ولأمرن بغيرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال^(١). وعن ابن عمر: أن (غيلان بن سلمة) كان عنده عشر نسوة، فأسلم وأسلمن معه فأمره النبي ﷺ أن يختار منهن أربعاً، هكذا أخرجه النسائي في «سننه». فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوخ له رسول الله ﷺ سائرهن في بقاء العشرة وقد أسلمن، فلما أمره بإمساك أربع وفراق سائرهن، دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال، فإذا كان هذا في الدوام، ففي الاستئناف بطريق الأولى والأخرى، والله سبحانه أعلم بالصواب.

(حديث آخر): قال الشافعي في مسنده عن نوفل بن معاوية الديلمي قال: أسلمت وعندي خمس نسوة، فقال لي رسول الله ﷺ «اختر أربعاً أيتهن شئت وفارق الأخرى»، فعمدت إلى أقدمهن صحبة، عجوز عاقر معي منذ ستين سنة فطلقتها، فهذه كلها شواهد لحديث غيلان كما قاله البيهقي، وقوله: «فإن خفتم ألا تعملوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم» أي إن خفتم من تعداد النساء أن لا تعملوا بينهن كما قال تعالى: «ولن تستطيعوا أن تعملوا بين النساء ولو حرصتم» فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة أو على الجواري السراري، فإنه لا يجب قسم بينهن، ولكن يستحب، فمن فعل فحسن ومن لا فلا حرج. وقوله: «ذلك أدنى ألا تعملوا» قال بعضهم: ذلك أدنى أن لا تكثر عيالكم قاله زيد بن أسلم والشافعي وهو مأخوذ من قوله تعالى: «وإن خفتم عيلة» أي اقرأ «سوف يفتنكم الله من فضله إن شاء» وقال الشاعر:

فما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيبل

وتقول العرب: عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر، ولكن في هذا التفسير هنا نظر، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر كذلك يخشى من تعداد السراي أيضاً، والصحيح قول الجمهور: «ذلك أدنى ألا تعملوا» أي لا تجوروا يقال: عال في الحكم إذا قسط وظلم وجار، وقال أبو طالب في نصيدته المشهورة.

بميزان قسط لا يخيس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل

عن عائشة عن النبي ﷺ «ذلك أدنى ألا تعملوا» قال: «لا تجوروا»، روي مرفوعاً والصحيح عن عائشة أنه موقوف، وروي عن ابن عباس وعائشة ومجاهد أنهم قالوا: لا تعملوا.

وقوله تعالى: «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة» قال ابن عباس: النحلة المهر وعن عائشة نحلة: فريضة، وقال ابن زيد: النحلة في كلام العرب الواجب، يقول: لا تنكحها إلا بشيء واجب لها، وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب. ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، وأن يكون طيب النفس بذلك، كما يمنح المنيحة ويعطي النحلة طيباً، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً، ولهذا قال: «فإن طبن لكم من شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً». وقال هشيم: كان الرجل إذا زوج بنته أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك ونزل: «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة»^(٢).

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّكَّانَ أَمْوَالَكُم مِّنْكُمْ إِلَىٰ سَبَلِ اللَّهِ لِكُلِّ فِتْنَةٍ وَانذَرُوهُمْ إِنَّا نَاكِرُونَمْ وَقُولُوا لِمَن ظَلَمَ فَظَلَمُوا إِلَيْنَا إِنَّا نَعْتَدُ الْعَذَابَ﴾

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والدارقطني إلى قوله: «اختر منهن أربعاً» والباقي من رواية أحمد.

(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْكُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٤١﴾ ﴿٤٠﴾

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال، التي جعلها الله للناس قياماً، أي تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها، ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء وهم أقسام: فتارة يكون الحجر للصر، فإن الصغير مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه، وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمْ﴾ قال: هم بئوك والنساء، وقال الضحاك: هم النساء والصبيان، وقال سعيد بن جبير: هم اليتامى، وقال مجاهد وعكرمة: هم النساء، وقال ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ النِّسَاءَ سَفَهَاءُ إِلَّا الَّتِي أَطَاعَتْ قِيَمَهَا» (١) . وقوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال ابن عباس: لا تعتمد إلى مالك وما خزلك الله وجعله لك معيشة، فتعطيه امرأتك أو بنتك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تتفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم. وقال ابن جرير عن أبي موسى قال: ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلبها، ورجل أعطى ماله سفيهاً وقد قال الله: ﴿وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمْ﴾، ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه. وقال مجاهد: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ يعني في البر والصلة، وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة في الكسوى والأرزاق، بالكلام الطيب وتحسين الأخلاق.

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ﴾ أي اختبروهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ قال مجاهد: يعني الحلم، قال الجمهور من العلماء: البلوغ في الغلام تارة يكون بالحلم، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد، وعن علي: قال حفظت من رسول الله ﷺ: «لَا يَتِمُّ بَعْدَ احْتِلَامٍ وَلَا صِمَاتٍ يَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ». وفي الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة عن النبي ﷺ قال: «رَفَعَ الْقَلَمَ عَنِ ثَلَاثَةٍ عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ - أَوْ يَسْتَكْمِلَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً - وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَفِيقَ»، وأخذوا ذلك من الحديث الثابت في الصحيحين عن ابن عمر قال: عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أَحَدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ فَلَمْ يَجْزِنِي، وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَنِي، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَّا بَلَغَهُ هَذَا الْحَدِيثُ: إِنَّ هَذَا الْفَرْقَ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ فِي الْغَرِيبِ عَنِ عُمَرَ: أَنَّ غُلَامًا لَيْتَهُرُ جَارِيَةٌ فِي شَعْرِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: انظُرُوا إِلَيْهِ فَلَمْ يَجِدْ أَبْتاً فَدَرَأَ عَنْهُ الْحَدَّ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: ابْتَهَرَهَا أَي قَذَفَهَا وَالْابْتِهَارُ: أَنْ يَقُولَ فَعَلْتُ بِهَا وَهُوَ كَاذِبٌ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَهُوَ الْابْتِهَارُ قَالَ الْكَعْبِيُّ فِي شَعْرِهِ:

قَبِيحٌ بِمِثْلِي نَعْتُ الْفِتْنَةِ إِمَا ابْتِهَارًا وَإِمَا ابْتِهَارًا

وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني صلاحاً في دينهم وحفظاً لأموالهم كذا روي عن ابن عباس والحسن البصري وغير واحد من الأئمة، وهكذا قال الفقهاء: إذا بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحجر عنه، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه. وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ أي مبادرة قبل بلوغهم، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ عنه ولا يأكل منه شيئاً، وقال الشعبي: هو عليه كالميتة والدم، ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه. عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية في والي اليتيم ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر قيامه عليه. قال الفقهاء: له أن يأكل من أقل الأمرين أجره مثله أو قدر حاجته، واختلفوا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه ابن مردويه مطولاً.

هل يرد إذا أيسر؟ على قولين:

(أحدهما): لا، لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً، وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي، لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل. روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن عندي يتماً عنده مال وليس لي مال، أكل من ماله؟ قال: «كل بالمعروف غير مسرف»^(١) وقال ابن جرير: جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال: إن في حجري أيتاماً، وإن لهم إبلاً وولي إبل، وأنا أمتح من إبلي فقراء، فماذا يحل من ألبانها؟ فقال: إن كنت تبغي ضالتها وتنهأ جرباها وتلوط حوضها وتسعى عليها فاشرب غير مضر بنسل، ولا ناهك في الحلب^(٢).

(والثاني): نعم، لأن مال اليتيم على الحظر، وإنما أبيع للحاجة، فيرد بدله كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة، وقد قال ابن أبي الدنيا: قال عمر رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من هذا المال منزلة والي اليتيم، إن استغنيت استغنفت، وإن احتجت استقرضت، فإذا أيسرت قضيت. وعن ابن عباس: «ومن كان فقيراً قليلاً بالمعروف»، قال: يأكل من ماله يقرت على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم، وقال عامر الشعبي: لا يأكل منه إلا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة فإن أكل منه قضاء.

«ومن كان غنياً فليستغف» يعني من الأولياء «ومن كان فقيراً» أي منهم «فليأكل بالمعروف» أي بالتي هي أحسن كما قال في الآية الأخرى: «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده» أي لا تقربوه إلا مصلحين له فإن احتجتم إليه أكلتم منه بالمعروف.

وقوله تعالى: «فإذا دفعتم إليهم أموالهم» يعني بعد بلوغهم الحلم وإيناسكم الرشد منهم فحينئذ سلموا إليهم أموالهم، فإذا دفعتم إليهم أموالهم «فأشهدوا عليهم» وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه. ثم قال: «وكفى بالله حسيباً» أي وكفى بالله محاسباً وشاهداً ورقياً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم لأموالهم، هل هي كاملة موفرة أو منقوصة بخسة؟ ولهذا ثبت في الصحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب ل نفسي: لا تأمرن على اثنين، ولا تليين مال يتيم».

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبْيَ فَأَذْنَبُوا لَهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلِيَسْتَأْذِنُوا بَلَدًا بِلَدٍّ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ وَالسَّبْيُ بِإِذْنِ وَالِدَيْهِمْ وَالْيَتَامَىٰ بِإِذْنِ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِيَسْتَأْذِنُوا مَنَازِلَ وَأَسْوَاقًا لِّبَيْعٍ بِإِذْنِ الْمَوْلَانِ وَالْمَوْلَىٰ بِلَدِّهِمْ فَإِنَّ الْبَيْعَ بِإِذْنِ الْمَوْلَانِ مَعْرُوفًا ﴿٩﴾﴾

قال سعيد بن جبير وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً فأنزل الله: «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون» الآية. أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستوون في أصل الوراثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلي به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء، فإنه لحمة كلحمة النسب. وروي ابن مردويه عن جابر قال: أتت أم كحة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن لي ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شيء؛ فأنزل الله تعالى «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون» الآية. وقوله: «وإذا حضر القسمة» الآية. قيل: المراد: وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث، «واليتامى والمساكين» فليرضخ لهم من التركة نصيب، وإن ذلك كان واجباً في ابتداء الإسلام، وقيل: يستحب، واختلفوا هل هو منسوخ أم لا؟ على قولين، فقال

(١) رواه ابن أبي حاتم وأبو داود والنسائي.

(٢) أخرجه ابن جرير ورواه مالك في الموطأ.

البخاري عن ابن عباس: هي محكمة وليست بمنسوخة، وقال عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وَإِذَا حضر القسمة أولو القربى﴾ نسختها الآية التي بعدها ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾. وروى العوفي عن ابن عباس: كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض، فأنزل الله بعد ذلك الفرائض فأعطى كل ذي حق حقه، فجعلت الصدقة فيما سُمي المتوفى. وقال ابن أبي حاتم عن عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين﴾ نسختها آية الميراث، فجعل لكل إسمان نصيبه مما ترك الوالدان والأقربون مما قلَّ منه أو كثر. وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم، والمعنى: أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل، فإن أنفسهم تنوق إلى شيء منه، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهم ياتسون لا شيء يعطونه، فأمر الله تعالى وهو الرؤوف الرحيم أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون برأ بهم وصدقة عليهم، وإحساناً إليهم وجبراً لكسرهم، كما قال الله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وذم الذين ينفلون المال خفية خشية أن يطلع عليهم المحاويج وذور النفاقة كما أخبر به عن أصحاب الجنة: ﴿إِذَا أَقْسَمُوا لِيَصْرَمْتَهَا صَبِيحِينَ﴾ أي بليل، وقال: ﴿فَانظُرُوا هُمْ يَتَخَفَتُونَ﴾ أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكيناً ﴿فَنُدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾ فمن جحد حق الله عليه عاقبه في أعز ما يملكه.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: هذا في الرجل يحضره الموت، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصبواب، فينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة؛ وهكذا قال مجاهد وغير واحد، وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده، قال: يا رسول الله إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: لا، قال: فالثلث؟ قال: الثلث، والثلث كثير. ثم قال رسول الله ﷺ: «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفرون الناس». وفي الصحيح عن ابن عباس قال: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث، والثلث كثير».

قال الفقهاء: إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفي في وصيته الثلث، وإن كانوا فقراء استحب أن ينقص الثلث؛ وقيل: المراد بالآية فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ﴿وَلَا يَأْكُلُوا إِسْرَافًا وَيَدَارًا﴾ حكاه ابن جرير عن ابن عباس، وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً، أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك، فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم، ثم أعلمهم أن من أكل أموال اليتامى ظلماً فإنما يأكل في بطنه ناراً ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة. وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع المرفقات» قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق؛ وأكل الربا، وأكل مال اليتيم؛ والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». وقال السدي: بيعت أكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأنفه وعينيه، يعرفه كل من رآه بأكل مال اليتيم، وقال ابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يعت يوم القيامة قومٌ من قبورهم تأجج أنفواهم ناراً» قيل يا رسول الله من هم؟ قال: ألم تر أن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ الآية. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أحرج مال الضعيفين: المرأة، واليتيم»^(١) أي أوصيكم باجتنب مالهما.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي وَرَثَ وَاللَّذِينَ تَرَكَتُمْ لِلَّذِينَ تَرَكَتُمْ وَإِنْ كَانَتْ وَجِدَةً

(١) رواه ابن مردويه من حديث أبي هريرة.

قَلْبَهَا النِّصْفَ وَلَا يُوتَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا رَزَقَ إِنْ كَانَ لَكُمُ وُلْدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمُ وُلْدٌ وَوَرِثَتُمُ آبَاؤُهُمُ أَلْتَلْتُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ إِخْوَةٌ فَلْيَأْتُوا الشُّدُسَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَ آبَائِهِمْ وَمِمَّا رَزَقُوا مِنْكُمْ لَكُمْ نَقِمًا رَبِّكُمْ ذَلِكَ اللَّهُ إِنْ أَلَّفَهُ كَانَتْ عَيْبًا حَكِيمًا ﴿١١٤﴾

هذه الآية الكريمة والتي بعدها، والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك، ولنذكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك، وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة، والحجاج بين الأئمة، فموضعه كتب الأحكام والله المستعان.

وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض، وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك؛ روى أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة»، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنه نصف العلم، وهو ينسى، وهو أول شيء يتزعج من أمتي^(١)». قال ابن عيينة: إنما سمي الفرائض نصف العلم لأنه يتلى به الناس كلهم، وقال البخاري عند تفسير هذه الآية: عن جابر بن عبد الله قال: عاذني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بعاء فتوضأ منه ثم رثن عليّ فأفقت فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(٢). (حديث آخر) عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا ينكحان إلا ولهما مال، فقال: «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك^(٣)».

ف قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكر دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة، ومعاناة التجارة والتكسب، وتحمل المشاق فناسب أن يعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى، وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم. وقال البخاري عن ابن عباس: كان الحال للولد، وكانت الرصية للوالدين؛ فسبح الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للزوجة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع. وقال العوفي عن ابن عباس: لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهها الناس أو بعضهم وقالوا: تعطى المرأة الربع أو الثمن، وتعطى الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة؛ اسكتوا عن هذا الحديث لعل رسول الله ﷺ ينساه؛ أو نقول له فيغيروا فقالوا: يا رسول الله تعطى الجارية نصف ما ترك أبوها؛ وليست تركب الفرس، ولا تقاتل القوم، ويعطى الصبي الميراث وليس يفتني شيئاً؟ وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية؛ لا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم؛ ويعطونه الأكبر فالأكبر، فنزلت الآية.

وقوله: ﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ قال بعض الناس: قوله «فوق» زائدة، وتقديره

(١) رواه ابن ماجه وفي إسناده ضعف.

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي من حديث جابر.

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

فإن كن نساء اثنتين كما في قوله: ﴿فاضربوا فوق الأضاق﴾ وهذا غير مسلم لا هنا ولا هناك، فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه، وهذا ممتنع. ثم قوله: ﴿قلهن ثلثا ما ترك﴾ لو كان المراد ما قاله لقال: فلهما ثلثا ما ترك. وإنما استفيد كون الثلثين للبتين من حكم الأختين في الآية الأخيرة، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين. وإذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بالطريق الأولى، وقد تقدم في حديث جابر أن النبي ﷺ حكم لابتي سعد بن الربيع بالثلثين قتل الكتاب والسنة على ذلك، وأيضاً فإنه قال: ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾، فلو كان للبتين النصف لنص عليه أيضاً فلما حكم به للواحدة على انفرداها؛ دل على أن البتين في حكم الثلاث والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدس﴾ إلى آخره، الأبوان لهما في الإرث أحوال:

(أحدها): أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس فإن لم يكن للبعث إلا بنت واحدة، فرض لها النصف، وللأبوين لكل واحد منها السدس؛ وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب.

(الحال الثاني): أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم الثلث والحالة هذه أخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض؛ فيكون قد أخذ ضعفي ما حصل للأم وهو الثلثان، فلو كان معهما زوج أو زوجة فيأخذ الزوج النصف والزوجة الربع.

ثم اختلف العلماء: ماذا تأخذ الأم بعد ذلك، على ثلاثة أقوال: (أحدها): أنها تأخذ ثلث الباقي في المسألتين؛ لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما، وقد جعل الله لها نصف ما جعل للأب، فتأخذ ثلث الباقي وتأخذ الأب الباقي ثلثيه؛ هذا قول عمر وعثمان؛ وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت، وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور العلماء. (والثاني): أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله: ﴿فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾، فإن الآية أعم من أن يكون معها زوج أو زوجة أو لا؛ وهو قول ابن عباس، وهو ضعيف. (والقول الثالث): أنها تأخذ ثلث جميع المال في (مسألة الزوجة) خاصة، فإنها تأخذ الربع وهو ثلاثة من اثني عشر، وتأخذ الأم الثلث وهو أربعة، فيبقى خمسة للأب، وأما في (مسألة الزوج) فتأخذ ثلث الباقي لثلاثاً تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال، فتكون المسألة من ستة: للزوج النصف ثلاثة وللأم ثلث الباقي بعد ذلك وهو سهم، وللأب الباقي بعد ذلك وهو سهمان. ويحكى هذا عن ابن سيرين، وهو مركب من القولين الأولين، وهو ضعيف أيضاً، والصحيح الأول والله أعلم.

(والحال الثالث) من أحوال الأبوين وهو اجتماعهما مع الإخوة، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، فيفرض لها مع وجودهم السدس، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب أخذ الأب الباقي، وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور.

وقوله: ﴿فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾ أضروا بالأم ولا يرثون، ولا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث ويحجبها ما فوق ذلك، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حججوا أمهم عن الثلث لأن أباهم يلي إنكاحهم ونفقت عليهم دون أمهم، وهذا كلام حسن.

وقوله: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة، وروى أحمد والترمذي عن علي بن أبي طالب قال: إنكم تقرأون ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وإن أعيان بني أمية يتوارثون دون بني العلات^(١)، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه.

(١) الأعيان: الإخوة من الأب والأم، والعلات: الذين أبوهم واحد وأمهاتهم شتى.

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة، حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت، ولهذا قال: **﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ﴾** يعني الزنا **﴿من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سيلاً﴾** فالسيب الذي جعله الله هو الناسخ لذلك، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم؛ وهو أمر متفق عليه، روى مسلم وأصحاب السنن عن عيادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: **«خذوا عني خذوا عني؟ قد جعل الله لهن سيلاً؛ البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»**. وقد روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«خذوا عني خذوا عني؟ قد جعل الله لهن سيلاً؛ البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»**. وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرمم فقط من غير جلد، قالوا: لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية واليهوديين، ولم يجلدهم قبل ذلك؛ فدل على أن الجلد ليس بحتم، بل هو منسوخ على قولهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: **﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾** أي واللذان يفعلان الفاحشة فأذوهما، قال ابن عباس: أي بالشم والتعبير والضرب بالنعال، وكان الحكم كذلك حتى نسخ الله بالجلد أو الرجم، وقال مجاهد: نزلت في الرجلين إذا فعلا اللواط، وقد روى أهل السنن عن ابن عباس مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«من رأبتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»**. وقوله: **﴿فإن تابا وأصلحا﴾** أي أقبلنا ونزعا عما كانوا عليه وصلحت أعمالهما وحسنت: **﴿فأعرضوا عنهما﴾** أي لا تعنفوهما بكلام تبيح بعد ذلك، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. **﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾**، وقد ثبت في الصحيحين «إذا زنت أمة أحدمك فليجلدها الحد ولا يثرب عليها» أي لا يعيرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت.

﴿وَمَا آتَيْنَا عَلَى اللَّهِ بِالَّذِينَ يَسْتَلُونَ التَّوْبَةَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ **﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ﴾** **﴿فإن تابا وأصلحا﴾** أي أقبلنا ونزعا عما كانوا عليه وصلحت أعمالهما وحسنت: **﴿فأعرضوا عنهما﴾** أي لا تعنفوهما بكلام تبيح بعد ذلك، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. **﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾**، وقد ثبت في الصحيحين «إذا زنت أمة أحدمك فليجلدها الحد ولا يثرب عليها» أي لا يعيرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت.

يقول سبحانه وتعالى: إنما يقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة ثم يتوب قبل الغرغرة، قال مجاهد: كل من عصي الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى يتزع عن الذنب، وقال قتادة: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة، وقال ابن عباس: **﴿ثم يتوبون من قريب﴾** قال: ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت. وقال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب، وقال قتادة والسدي: ما دام في صحته، وقال الحسن البصري: **﴿ثم يتوبون من قريب﴾** ما لم يغرغر.

(ذكر الأحاديث في ذلك): قال الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ، قال: **«إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»**. (حديث آخر): قال ابن مردويه عن عبد الله بن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من عبد مؤمن يتوب قبل الموت بشهر إلا قبل الله منه أدنى من ذلك؛ وقبل موته بيوم وساعة يعلم الله منه التوبة والإخلاص إليه إلا قبل منه»**. (حديث آخر): قال أبو داود الطيالسي عن عبد الله بن عمر، يقول: من تاب قبل موته بعام تيب عليه، ومن تاب قبل موته بشهر تيب عليه، ومن تاب قبل موته بجمعة تيب عليه، ومن تاب قبل موته بيوم تيب عليه، ومن تاب قبل موته بساعة تيب عليه، فقلت له: إنما قال الله: **﴿إنما التوبة هلى الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب﴾** فقال إنما أحدثك ما سمعته من رسول الله ﷺ. (حديث آخر): قال أبو بكر بن مردويه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر»**.

﴿فَاتَّبِعُوا الذِّكْرَ مَا تَمَنَّوْا لَا يَحِيلَ لَكُمْ أَنْ تَرَوْا النِّسَاءَ كَرَمًا وَلَا تَسْتَلْفِتُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا عَاتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ

يَنْجَسُوا نَيْبًا وَيَأْتِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكُونُوا سِتْرًا وَيَجْمَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١١٦﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ
اِسْتِخْلَالَ رِجْلِ نِكَاحِكُمْ ذَوَجٍ وَمَاتَ بِنَتْنِهِ إِتْمَدْتَهُنَّ قِبَلًا فَلَا تُأْخِذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَنْتُمْ وَأَوْلَادُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١٧﴾
وَكَيْفَ تَأْخِذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَشَرِكُمْ إِلَى تَعِينٍ وَأَعْتَدَ مِنْكُمْ نَيْبًا قَلِيلًا ﴿١١٨﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ
مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عَشِيرَةٌ وَاقْتَنُوا نِكَاحًا كَسِيرًا ﴿١١٩﴾

روى البخاري عن ابن عباس: ﴿ها أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن تروا النساء كرهاً﴾، قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجها، وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية: ﴿ها أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن تروا النساء كرهاً﴾ هكذا ذكره البخاري وأبو داود والنسائي. وروى عن ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا توفي عنها زوجها فجاء رجل فالتقى عليها ثوباً كان أحق بها، فنزلت: ﴿ها أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن تروا النساء كرهاً﴾ وقال زيد بن أسلم في الآية: كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله وكان يعضلها حتى يرثها، أو يزوجها من أراد، وكان أهل تهامة يسيء الرجل صحة المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها أن لا تنكح إلا من أراد حتى تفتدي منه ببعض ما أعطاهما فهي الله المؤمنين عن ذلك. وقال أبو بكر بن مردويه عن محمد ابن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته وكان لهم ذلك في الجاهلية فأنزل الله: ﴿لا يحل لكم أن تروا النساء كرهاً﴾، وقال ابن جريج: نزلت في (كبيشة بنت معن بن عاصم بن الأوس) توفي عنها أبو قيس بن الأسلت فجنح عليها ابنه، فجاءت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لا أنا ورثت زوجي ولا أنا تركت فأنكح، فأنزل الله هذه الآية. فالآية نعم ما كان يفعله أهل الجاهلية وكل ما كان فيه نوع من ذلك والله أعلم.

وقوله: ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ أي لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والإضرار، وقال ابن عباس في قوله: ﴿ولا تعضلوهن﴾، يقول: ولا تقهروهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن يعني الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصاحبته ولها عليه مهر فيضرها لتفتدي به، وكذا قال الضحاك وقتادة وغير واحد. واختاره ابن جرير، وقال ابن المبارك عن ابن السلمي قال: نزلت هاتان الآيتان إحداهما في أمر الجاهلية، والأخرى في أمر الإسلام يعني قوله تعالى: ﴿لا يحل لكم أن تروا النساء كرهاً﴾ في الجاهلية، ﴿ولا تعضلوهن﴾ في الإسلام، وقوله: ﴿لا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال ابن مسعود وابن عباس: يعني بذلك الزنا، يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها، وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها كما قال تعالى: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله﴾ الآية، وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك: الفاحشة العيبة النشوز والعصيان. واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله الزنا والعصيان، والنشوز وبذاء اللسان، وغير ذلك، يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا جيد والله أعلم. وهذا يقتضي أن يكون السياق كله كان في أمر الجاهلية ولكن نهي المسلمون عن فعله في الإسلام. وقال عبد الرحمن بن زيد: كان العضل في فريش بمكة: ينكح الرجل المرأة الشريفة، فلعلها لا توافقه فيفارقها على أن لا تزوج إلا بإذنه، فيأتي بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد، فإذا جاء الخاطب، فإن أعطته وأرضته أذن لها وإلا عضلها، قال فهذا قوله: ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ الآية. وقال مجاهد في قوله: ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ هو كالمضل في سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿عاشروهن بالمعروف﴾ أي طيبوا أقوالكم لهن وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها فانفعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ وقال رسول الله ﷺ: خيركم خيركم لأهله؛ وأنا خيركم لأهلي. وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم

البشر، يداعب أهله ويتلطف بهم ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها يتودد إليها بذلك، قالت: سابقتني رسول الله ﷺ فسبته وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقتها بعدما حملت اللحم فسبنتني، فقال: «هذه بتلك». ويجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهم العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، وكان ينام مع المرأة من نساءه في شعار واحد، يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يؤانسهم بذلك ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾، وأحكام عشرة النساء وما يتعلق بتفصيل ذلك موضعه كتب الأحكام، والله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿فإن كرهتموهن فمسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾، أي فغنى أن يكون صبركم في إمساكنهن مع الكراهة، فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة، كما قال ابن عباس: هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولداً، ويكون في ذلك الولد خير كثير، وفي الحديث الصحيح: «لا يترك مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقاً رضي منها آخراً».

وقوله تعالى: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً إنما خلقوه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ أي إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها، فلا يأخذ مما كان أصدق الأولى شيئاً ولو كان قنطاراً من المال. وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق ثم رجع عن ذلك كما قال الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تغالوا في صداق النساء، فإنها لو كانت مكرومة في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبي ﷺ، ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نساءه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية.

(طريق أخرى عن عمر): قال الحافظ أبو يعلى عن الشعبي عن مسروق قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء!! وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمئة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها، فلا عرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمئة درهم. قال: ثم نزل. فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمئة درهم؟ قال: نعم، فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ الآية. قال: اللهم غفراً، كل الناس أفهق من عمر. ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمئة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب. قال أبو يعلى: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليفعل. إسناده جيد قوي. وفي رواية: امرأة أصابت ورجل أخطأ، ولهذا قال منكرًا: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ أي وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيت إليها وأنضت إليك! قال ابن عباس: يعني بذلك الجماع. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال للمثلاعتين بعد فراغهما من تلاعهما: «الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟» قالها ثلاثاً فقال الرجل: يا رسول الله مالي - يعني ما أصدقها - قال: «لا مال لك، إن كنت صدقت فبه بما استحلتت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها».

وقوله تعالى: ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ المراد بذلك العقد، وقال سفيان الثوري في قوله: ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ قال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقال الربيع بن أنس في الآية: هو قوله: «أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»، وفي صحيح مسلم عن جابر في خطبة حجة الوداع: أن النبي ﷺ قال فيها: «واستوصوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن

بكلمة الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكَحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الآية، يحرم الله تعالى زوجات الآباء تكريماً لهم، وإعظماً واحتراماً أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه. قال ابن أبي حاتم عن عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال: لما توفي أبو قيس - يعني ابن الأسلت - وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته فقالت: إنما أعدك ولدأ وأنت من صالحى قومك، ولكنى أتى رسول الله ﷺ، فقالت: إن أبا قيس توفي، فقال خيراً، ثم قالت: إن ابنه قيساً خطبني وهو من صالحى قومه، وإنما كنت أعدك ولدأ فما ترى؟ فقال لها: «ارجعي إلى بيتك» قال فتزلت: ﴿وَلَا تَنْكَحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الآية. وقد زعم السهيلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولاً به في الجاهلية، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، كما قال: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ قال: وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة، تزوج بامرأة أبيه فأولدها ابنه النضر بن كنانة، قال: وقد قال ﷺ: «ولدت من نكاح لا من سفاح» قال: فدل على أنه كان سائغاً لهم ذلك، فأراد أنهم كانوا يعدونه نكاحاً، وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكَحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ﴾، وهكذا قال عطاء وقتادة، ولكن فيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر والله أعلم، وعلى كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة، مبشع غاية التبشع، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَةَ إِذْ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ فزاد ههنا: ﴿وَمَقْتًا﴾ أي بغضاً أي هو أمر كبير في نفسه، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة ينفخ من كان زوجها قبله، ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبي ﷺ وهو كالأب، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه.

وقال عطاء في قوله تعالى: ﴿وَمَقْتًا﴾ أي يمقت الله عليه، ﴿وساء سبيلاً﴾ أي وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن البراء بن عازب عن خاله أبي بردة: أنه بعث رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله، وقال الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال: مر بي عمي (الحارث بن عمير) ومعه لواء قد عقده له النبي ﷺ فقلت له: أي عم أين بعثك النبي؟ قال: بعثني إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن أضرب عنقه.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَزَوَّجَاتُ الْأَخِ وَرَبَائِبُكُمُ الْأَخْيَارُ وَالرَّضَعَاءُ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَأَخَوَاتُ نِسَائِكُمْ وَأَخَوَاتُ الْأَخِيَّاتِ مِنَ الْأَخْيَارِ وَالنِّسَاءُ الَّتِي كُنَّ عَلَيْكُمْ إِذَا مَا كُنْتُمْ بِهِنَّ كَمَا كُنْتُمْ بِأَخَوَاتِكُمْ مِنَ الْأَخْيَارِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢١﴾ وَالنِّسَاءُ مِنَ الْأَخْيَارِ الَّتِي كُنَّ عَلَيْكُمْ إِذَا مَا كُنْتُمْ بِهِنَّ كَمَا كُنْتُمْ بِأَخَوَاتِكُمْ مِنَ الْأَخْيَارِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب، وما يتبعه من الرضاع والمخارم بالصهر، كما قال ابن عباس: حرمت عليكم سبع نسباً وسبع صهراً، وقرأ: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم﴾ الآية. وقد استدلل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه، بعموم قوله تعالى: ﴿وبناتكم﴾ فإنها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل، وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها لأنها ليست بنتاً شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: ﴿وبناتكم﴾ في أولادكم للذكر مثل

حظ الأنثيين» فإنها لا تورث بالإجماع، فكذلك لا تدخل في هذه الآية والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك، ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة» وفي لفظ لمسلم: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب». ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لمعوم هذه الآية، وهذا قول مالك، ويروى عن ابن عمر، وقال آخرون: لا يحرم أقل من ثلاث رضعات لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحرم المصاة ولا المصتان»، وفي لفظ آخر: «لا تحرم الإملاجة ولا الإملاجتان». ومن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد بن حنبل، وقال آخرون: لا يحرم أقل من خمس رضعات لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرم من نسختن بخمس معلومات، فتوفي النبي ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن) وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات، وبهذا قال الشافعي وأصحابه. ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور، وقد قلعتنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة عند قوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾.

وقوله: ﴿وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾ أما (أم المرأة) فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها، سواء دخل بها أو لم يدخل بها، وأما (الربيبية) وهي بنت المرأة فلا تحرم حتى يدخل بأمرها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز أن يتزوج بنتها، ولهذا قال: ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ في تزويجهن، فهذا خاص بالربائب وحدهن، وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب فقال: لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها لقوله: ﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾. وجمهور العلماء على أن الريبية لا تحرم بالعقد على الأم بخلاف الأم فإنها تحرم بمجرد العقد، قال ابن أبي حاتم: عن ابن عباس أنه كان يقول: إذا طلق الرجل المرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل له أمها، وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً، والله الحمد والمنة.

وأما قوله تعالى: ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾ فالجمهور على أن الريبية حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له كقوله تعالى: ﴿ولا تكوهوا قبياتكم على البغاء إن أردن تحصناً﴾، وفي الصحيحين أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان، وفي لفظ لمسلم (عزة بنت أبي سفيان) قال: «أو تحيين ذلك؟» قالت: نعم لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي، قال: «فإن ذلك لا يحل لي» قالت: فإننا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة قال: «بنت أم سلمة؟» قالت: نعم قال: «إنها لو لم تكن ريبية في حجري ما حلت لي، إنها بنت أخي من الرضاعة، أرضعتني وأباً سلمة ثوية، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن». وفي رواية للبخاري: «إنني لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي» فجعل السناط في التحريم مجرد تزوجه أم سلمة وحكم بالتحريم بذلك، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف، وقد قيل بأنه لا تحرم الريبية إلا إذا كانت في حجر الرجل فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم وهو قول غريب جداً، وإلى هذا ذهب داود الظاهري وأصحابه، واختاره ابن حزم، وحكى لي شيخنا الحافظ الذهبي أنه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله فاستشكله وتوقف في ذلك والله أعلم؛ وأما الريبية في ملك اليمين فقد قال الإمام مالك بن أنس: إن عمر بن الخطاب سئل عن المرأة وبنتها من ملك اليمين توطأ أحدهما بعد الأخرى فقال عمر: ما أحب أن أجزهما جميعاً يريد أن أطأهما جميعاً بملك يميني. وعن طارق بن عبد الرحمن عن قيس قال: قلت لابن عباس: أيقع الرجل على امرأة

وابنتها مملوكين له؟ فقال أحلتها آية وحرمتها آية، ولم أكن لأفعله. وقال الشيخ ابن عبد البر رحمه الله: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة ويبتها من ملك اليمين لأن الله حرم ذلك في النكاح، قال: ﴿وَأُمَّهَاتُ نَسَائِكُمْ وَرِيَابِكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نَسَائِكُمْ﴾، وملك اليمين عندهم تبع للنكاح إلا ما روي عن عمر وابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم، وروى هشام عن قتادة: بنت الربية وبنت ابنتها لا تصلح وإن كانت أسفل بيظون كثيرة، ومعنى قوله: ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أي نكحتموهن قاله ابن عباس وغير واحد، وقال ابن جرير: وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأة لا تحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها وقبل النظر إلى فرجها بشهوة ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع.

وقوله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَاتِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ أي وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية. قال ابن جرير: سألت عطاء عن قوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَاتِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ قال: كنا نحدث - والله أعلم - أن النبي ﷺ لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة في ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَاتِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾، ونزلت: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾، ونزلت: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية، أي وحرمت عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج وكذا في ملك اليمين، إلا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عنه وغفرناه، فدل على أنه لا مشنوية فيما يستقبل لأنه استثنى مما سلف، كما قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهِ الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً، على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح، ومن أسلم وتحتة أختان خير فيمسك إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة، قال الإمام أحمد: عن الضحاک بن فيروز عن أبيه قال: أسلمت. وعندني امرأتان أختان فأمرني النبي ﷺ أن أطلق إحداهما، وفي لفظ للترمذي: فقال النبي ﷺ: «اختر أيتها شئت»^(١) وعن أبي خراش الرعيني قال: قدمت على رسول الله ﷺ وعندني أختان تزوجتهما في الجاهلية فقال: «إذا رجعت فطلق إحداهما». وأما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية، وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين فكرهه، فقال له - يعني السائل - يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، فقال له ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: وبغيرك مما ملكت يمينك. وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة الأربعة وغيرهم، وإن كان بعض السلف قد توقف في ذلك، وقال الإمام مالك: سألت رجل (عثمان بن عفان) عن الأختين في ملك اليمين هل يجمع بينهما؟ فقال عثمان: أحلتها آية وحرمتها آية، وما كنت لأمنع ذلك، فخرج من عنده فلقني رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فسأله عن ذلك، فقال: لو كان لي من الأمر شيء ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجمتة نكالا، وقال مالك قال ابن شهاب: أراه علي بن أبي طالب.

وعن إياس بن عامر قال: سألت علي بن أبي طالب فقلت: إن لي أختين مما ملكت يميني اتخذت إحداهما سرية فولدت لي أولاداً ثم رغبت في الأخرى فما أصنع؟ فقال علي رضي الله عنه: تعقت التي كنت تطأ ثم تطأ الأخرى، قلت: فإن ناساً يقولون بل تزوجها ثم تطأ الأخرى، فقال علي: رأيت إن طلقها زوجها أو مات عنها ليس ترجع إليك؟ لأن تعتقها أسلم لك، ثم أخذ علي بيدي فقال لي: إنه يحرم عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك في كتاب الله عز وجل من الحرائر إلا العدة، أو قال إلا الأربع، ويحرم عليك من الرضاع ما يحرم عليك في كتاب الله من النسب^(٢). ثم قال أبو عمر: هذا الحديث لو رحل رجل ولم

(١) أخرجه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حديث حسن.

(٢) رواه ابن عبد البر في الاستذكار.

يصب من أقصى المغرب والمشرق إلى مكة غيره لما عابت رحلته. وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: يحرم من الإمام ما يحرم من الحرائر إلا العدد. وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء كما لا يحل ذلك في النكاح، وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم﴾ إلى آخر الآية أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، وكذلك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب، وكذلك هو عند جمهورهم وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها.

وقوله تعالى: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمنكم﴾ أي وحرم عليكم من الأجنبية المحصنات وهن المزوجات ﴿إلا ما ملكت أيمنكم﴾ يعني إلا ما ملكتموهن بالسي، فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن فإن الآية نزلت في ذلك، وقال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا سبياً من سبي أوطاس ولهن أزواج ففكرنا أن تقع عليهن ولهن أزواج، فسالنا النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمنكم﴾ فاستحللنا فزوجهن. وفي رواية مسلم أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابوا سبياً يوم أوطاس لهن أزواج من أهل الشرك، فكان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ كفؤوا وتأنموا من غشيانهن قال: فنزلت هذه الآية في ذلك: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمنكم﴾. وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً لها من زوجها أخذاً بعموم هذه الآية، وقال ابن جرير: كان عبد الله يقول: يبيعها طلاقاً ويتلو هذه الآية: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمنكم﴾ وعن ابن مسعود قال: إذا بيعت الأمة ولها زوج فبيدها أحق بضمها. وعن ابن المسيب قوله: ﴿والمحصنات من النساء﴾، قال: هذه ذوات الأزواج حرم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك قبيلها طلاقاً.

فهذا قول هؤلاء من السلف وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً، فأروا أن بيع الأمة ليس طلاقاً لها، لأن المشتري نائب عن البائع، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة وباعها مسلوقة عنها، واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخزوم في الصحيحين وغيرهما، فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها، ولم يفسخ نكاحها من زوجها مغيث، بل خيبرها رسول الله ﷺ بين الفسخ والبقاء، فاختارت الفسخ وقصتها مشهورة فلو كان بيع الأمة طلاقاً كما قال هؤلاء ما خيبرها النبي ﷺ، فلما خيبرها دل على بقاء النكاح، وأن المراد من الآية الميسيات فقط والله أعلم، وقد قيل المراد بقوله: ﴿والمحصنات من النساء﴾ يعني العفائف حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهم بنكاح وشهود ومهور وولي واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، حكاه ابن جرير عن أبي العالية وطاوس وغيرهما، وقال عمر وعبيدة: ﴿والمحصنات من النساء﴾ ما عدا الأربع حرام عليكم إلا ما ملكت أيمنكم.

وقوله تعالى: ﴿كتاب الله عليكم﴾ أي هذا التحريم كتاب الله عليكم، يعني الأربع فالزموا كتابه، ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه. وقال عطاء والسدي في قوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾ يعني الأربع، وقال إبراهيم: ﴿كتاب الله عليكم﴾: يعني ما حرم عليكم، وقوله تعالى: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ أي ما عدا من ذكركم من المحارم من لكم حلال، قاله عطاء وغيره، وقال قتادة: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾: يعني ما ملكت أيمنكم. وهذه الآية هي التي احتج بها من احتج على تحليل الجمع بين الأختين، وقول من قال: أحلتها آية وحرمتهما آية. وقوله تعالى: ﴿أن تبغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾ أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع، أو السراي ما شتم بالطريق الشرعي، ولهذا قال: ﴿محصنين غير مسافحين﴾.

وقوله تعالى: ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة﴾ أي كما تستمتعتم بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك، كما قال تعالى: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾، وكقوله تعالى:

﴿وَأْتُوا النساء صدقاتهن نحلة﴾، وكفوله: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾. وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك، وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء إلى أنه أبيح، ثم نسخ ثم أبيح ثم نسخ مرتين. وقال آخرون: إنما أبيح مرة ثم نسخ ولم يبيح بعد ذلك، وقد قيل بإباحتها للضرورة وهي رواية عن الإمام أحمد، وقال مجاهد: نزلت في نكاح المتعة، ولكن الجمهور على خلاف ذلك، والعمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) قال: نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر، ولهذا الحديث ألفاظ مقررّة هي في كتاب الأحكام، وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني عن أبيه أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال: «يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً»، وفي رواية لمسلم في حجة الوداع وله ألفاظ موضعها كتاب الأحكام.

وقوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك، وقال ابن جرير: إن رجالاً كانوا يفرضون المهر، ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة فقال: ﴿ولا جناح عليكم﴾ أيها الناس ﴿فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾، يعني إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ والتراضي أن يوفيهما صداقها، ثم يخيرها يعني في المقام أو الفراق، وقوله تعالى: ﴿إن الله كان هليماً حكيماً﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضَكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَوِّجَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَسْدَانٍ فَإِذَا أُمِيتَ إِنْ آتَيْتَ بِمَنْجُوتٍ فَلْيُدْرِكْ بِهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَ الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِنَ أَلْتَمَسَتْ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا حَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً﴾ أي سعة وقدرة ﴿أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ أي الحرائر العفاف المؤمنات، ﴿فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ أي تزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون، ولهذا قال: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ قال ابن عباس: فليتك من إماء المؤمنين، ثم اعترض بقوله: ﴿والله أعلم بإيمانكم بعضهم من بعض﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور وسرايرها، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور، ثم قال: ﴿فانكحوهن بإذن أهلن﴾ فدل على أن السيد هو ولي أمته لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك هو ولي عبده ليس له أن يتزوج بغير إذنه، كما جاء في الحديث: «أبما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عامر» أي زان، فإن كان مالك الأمة امرأة زوجها من يزوج المرأة بإذنها لما جاء في الحديث: «لا تزوج المرأة المرأة، ولا المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها».

وقوله تعالى: ﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾ أي وادفعوا مهرهن بالمعروف، أي عن طيب نفس منكم، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات، وقوله تعالى: ﴿محصنات﴾ أي عفاف عن الزنا لا يتعاطينه، ولهذا قال: ﴿غير مسافحات﴾ وهن الزواني اللاتي لا يمتنعن من أرادهن بالفاحشة، وقوله تعالى: ﴿ولا متخذات أسدان﴾ قال ابن عباس: (المسافحات) هن الزواني المعلنات، يعني الزواني اللاتي لا يمتنعن أحداً أرادهن بالفاحشة، ومتخذات أسدان يعني أخلاء، وقال الحسن البصري: يعني الصديق، وقال الضحاك: ذات الخليل الواحد المقرة به، نهى الله عن ذلك يعني تزويجها ما دامت كذلك.

وقوله تعالى: ﴿فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ اختلف القراء في ﴿أحصن﴾ فقرأه بعضهم بضم الهمزة وكسر الصاد مبني لما لم يسم فاعله، وقرئ بفتح الهمزة

والصاد فعل لازم، ثم قيل: معنى القراءتين واحد، واختلفوا فيه على قولين:

(أحدهما): أن المراد بالإحصان ههنا الإسلام روي ذلك عن ابن مسعود وابن عمر. وقيل: المراد به ههنا التزويج، وهو قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وغيرهم، وقد روي عن مجاهد أنه قال: إحصان الأمة أن ينكحها الحر، وإحصان العبد أن ينكح الحر، وكذا روي عن ابن عباس رواهما ابن جرير في تفسيره، وقيل: معنى القراءتين متباين، فمن قرأ «أحصن» بضم الهمزة فمراده التزويج، ومن قرأ بفتحها فمراده الإسلام، اختاره أبو جعفر بن جرير في تفسيره وقرره ونصره؛ والأظهر والله أعلم: أن المراد بالإحصان ههنا التزويج، لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت إيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾، والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله: ﴿فإذا أحصن﴾ أي تزوجن كما فسره ابن عباس وغيره. وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور، وذلك أنهم يقولون: إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة، سواء كانت مسلمة أو كافرة، مزوجة أو بكراً، مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة من الإماء، وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك، فأما الجمهور فقالوا: المنطوق مقدم على المفهوم، وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإماء فقدمناها على مفهوم الآية، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال: يا أيها الناس أقيموا الحد على إيمانكم من أحصن منهن ومن لم يحصن، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت إن جلدها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «أحسنت أتركها حتى تتماثل» وفي رواية: «فإذا تعافت من نفاسها فاجلدها خمسين» وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر».

(الجواب الثاني): جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت ولم تحصن فلا حد عليها، وإتما تضرب تأديباً وهو المحكي عن ابن عباس رضي الله عنه، وإليه ذهب طاوس وسعيد بن جبير وغيرهما. وعمدتهم مفهوم الآية، وهو من مفاهيم الشرط، وهو حجة عند أكثرهم فقدم على العموم عندهم وحديث أبي هريرة وزيد بن خالد أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ قال: «إن زنت فحدوها، ثم إن زنت فاجلدها، ثم يبعوها ولو بظفير» قال ابن شهاب: لا أدري بعد الثالثة أو الرابعة. أخرجاه في الصحيحين. وعند مسلم قال ابن شهاب: الضفير: الحبل، قالوا: فلم يؤقت فيه عدد كما أقت في المحصنة، وكما وقت في القرآن بنصف ما على المحصنات، فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك والله أعلم. قال أبو عبد الله الشافعي رحمه الله: ولم يختلف المسلمون في أن لا رجم على مملوك في الزنا؛ وذلك لأن الآية دلت على أن عليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، والألف واللام في المحصنات للعهد، وهن المحصنات المذكورات في أول الآية: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ والمراد بهن الحرائر فقط من غير تعرض للتزويج بحرة. وقوله: ﴿نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ يدل على أن المراد من العذاب الذي يمكن تمييزه وهو الجلد لا الرجم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾ أي إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، فله حينئذ أن يتزوج بالأمة، وإن ترك تزويجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنا فهو خير له، لأنه إذا تزوجها جاءه أولاده أرقاء لسيدتها، إلا أن يكون الزوج غريباً فلا يكون أولاده منها أرقاء في قول قديم للشافعي، ولهذا قال: ﴿وإن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾. ومن هذه الآية الكريمة استدل جمهور العلماء في جواز نكاح الإماء على أنه لا بد من عدم الطول لنكاح الحرائر، ومن خوف العنت، لما في نكاحهن من مفسدة رق الأولاد، ولما فيهن من الدناءة في العدول

عن الحرائر إليهن، وخالف الجمهور أبو حنيفة وأصحابه في اشتراط الأمرين فقالوا: متى لم يكن الرجل مزوجاً بحرة جاز له نكاح الأمة المؤمنة والكتابية أيضاً، سواء كان واجداً لطول حرة أم لا، وسواء خاف العتق أم لا، وعمدتهم فيما ذهبوا إليه قوله تعالى: ﴿والمحصنات من اللذين أتوا الكتاب من قبلكم﴾ أي العفاف وهو يعم الحرائر والإماء، وهذه الآية عامة وهذه أيضاً ظاهرة في الدلالة على ما قاله الجمهور، والله أعلم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَتَّبِعَ لَكُمْ رَهْبَتَكُمْ مَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ لِلْكَافِرِينَ الشَّهْرَةَ أَنْ يَقِيلُوا تَيْلًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ مَنَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم، مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها، ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ يعني طرائقهم الحميدة واتباع شرائعهم التي يحبها ويرضاها، ﴿ويتوب عليكم﴾ أي من الإثم والمحارم، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله، ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ أي يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً. ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ أي في شرائعهم وأوامره ونواهيهم وما يقدره لكم، ولهذا أباح الإماء بشروط كما قال مجاهد وغيره، ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ فناسب التخفيف لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهنئه. وقال طاوس: ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾: أي في أمر النساء، وقال وكيع: يذهب عقله عندهن، وقال موسى عليه السلام لنيينا محمد ﷺ ليلة الإسراء: ماذا فرض عليكم؟ فقال: أمرني بخمسين صلاة في كل يوم وليلة، فقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمك لا تطيق ذلك، فأني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا، وإن أمك أضعف أسمعاً وأبصاراً وقلوباً؛ فرجع فوضع عشراً، ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك حتى بقيت خمساً.

﴿بِأَيْهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ رِضَىٰ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ حَتَمْتُمْ كِبَارَ مَا تَهْوُونَ عَنْهُ تَكْفِيرًا فَكُفِّرْ بَعْدَكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتَلَطَّفْمْ ثُمَّ خَلَا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل، أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية، كأنواع الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في قالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا، حتى قال ابن جرير: عن ابن عباس في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رضيته أخذته وإلا رددت معه درهماً، قال: هو الذي قال الله عز وجل فيه: ﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾. وعن علفمة عن عبد الله في الآية قال: إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة، وقال ابن عباس: لما أنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل أموالنا، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكيف للناس؟! فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾^(١) الآية.

وقوله تعالى: ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ الاستثناء منقطع كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها، وتسيبوا بها في تحصيل الأموال، كما قال تعالى: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾، وكقوله: ﴿لا يدعون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾، ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا

بالقبول لأنه يدل على التراضي نصاً بخلاف المعاوضة فإنها قد لا تدل على الرضا، وخالف الجمهور في ذلك (مالك وأبو حنيفة وأحمد) فأروا أن الأقوال كما تدل على التراضي، فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً، فصححوا بيع المعاوضة مطلقاً، ومنهم من قال: يصح في المحقرات وفيما يعده الناس بيعاً، وهو احتياط نظر من محققي المذهب والله أعلم. وقال مجاهد: ﴿إلا أن تكون تجارة من تراض منكم﴾ بيعاً أو عطاء يعطيه أحد أحداً، قال رسول الله ﷺ: «البيع عن تراض، والخيار بعد الصفقة، ولا يحل لمسلم أن يئس مسلماً»^(١) هذا حديث مرسل. ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»، وفي لفظ البخاري: «إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا»، وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث أحمد والشافعي وأصحابهما وجمهور السلف والخلف، ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام، بحسب ما يتبين فيه حال البيع ولو إلى سنة في القرية ونحوها كما هو المشهور عن مالك رحمه الله، وصححوا بيع المعاوضة مطلقاً وهو قول في مذهب الشافعي، ومنهم من قال: يصح بيع المعاوضة في المحقرات فيما يعده الناس بيعاً، وهو اختيار طائفة من الأصحاب كما هو متفق عليه.

وقوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي بارتكاب محارم الله وتماطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل ﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه. عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: لما بعته النبي ﷺ عام (ذات السلاسل) قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟» قال: قلت يا رسول الله إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فذكرت قول الله عز وجل: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾ فتيمنت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً^(٢). وأورد ابن مردويه عند هذه الآية الكريمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بسم فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً»، وفي الصحيحين: «من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة». وفي الصحيحين أيضاً عن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «كان رجل ممن كان قبلكم وكان به جرح فأخذ سكيناً نحر بها يده فما رقا الدم حتى مات، قال الله عز وجل: عبيد يادرنى بنفسه حرمت عليه الجنة» ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك هدواناً وظلماً﴾ أي ومن تماطى ما نهاه الله عنه معتدياً فيه، ظالماً في تعاطيه، أي عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه ﴿فسوف نصليه ناراً﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد.

وقوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ الآية. أي إذا اجتنبت كبائر الآثام التي نهيت عنها، كفرنا عنكم سيئات الذنوب وأدخلناكم الجنة، ولهذا قال: ﴿وندخلكم مدخلاً كريماً﴾، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر: قال أبو جعفر ابن جرير عن صهيب مولى الصواري، أنه سمع أبا هريرة وأبا سعيد يقولان: خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «والذي نفسي بيده» ثلاث مرات ثم أكب فأكب كل رجل منا ييكي لا ندرى ماذا حلف عليه، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشري فكان أحب إلينا من حمر النعم فقال: «ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة ثم قيل له ادخل بسلام»^(٣).

(١) أخرجه ابن جرير وهو حديث مرسل.

(٢) رواه أحمد وأبو داود.

(٣) رواه النسائي والحاكم وابن حبان.

(تفسير هذه السبع): وذلك بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع المغيقات». قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات». فالتص على هذه السبع بأنهن كبائر، لا يضي ما عدهن إلا عند من يقول بمفهوم اللقب، وهو ضعيف عند عدم القرينة، ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن أبي أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: «من عبد الله لا يشرك به شيئاً، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، وصام رمضان، واجتنب الكبائر فله الجنة - أو دخل الجنة - فسأل رجل ما الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، وقتل نفس مسلمة، والفرار من الزحف». وكتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً فيه الفرائض والسنن والدييات، ويحث به مع (عمرو بن حزم) وكان في الكتاب: «إن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة: إشراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير حق، والفرار في سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورعي المحصنة، وتعلم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم»^(١).

(حديث آخر فيه ذكر شهادة الزور): عن أنس بن مالك قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سئل عن الكبائر فقال: «الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين»، وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى، قال: «الإشراك بالله، وقول الزور - أو شهادة الزور - وأخرجه الشيخان من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور»، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

(حديث آخر فيه ذكر قتل الولد): عن عبد الله بن مسعود قال، قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ وفي رواية أكبر؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، ثم قرأ: «والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر» إلى قوله: ﴿إلا من تاب﴾^(٢).

(حديث آخر في اليمين الغموس): قال ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن أنيس الجهني عن رسول الله ﷺ قال: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وما حلف حالف بالله يمين صبر فأدخل فيها مثل جناح البعوضة إلا كانت وكنة في قلبه إلى يوم القيامة».

(حديث آخر في التسبب إلى شتم الوالدين): عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه». قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»^(٣). وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «سياب المسلم فوق، وقتاله كفر».

(حديث آخر): عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «الإضرار في الوصية من الكبائر»، قال ابن أبي حاتم: هو صحيح عن ابن عباس من قوله.

(حديث آخر في ذلك): قال ابن جرير عن أبي أمامة: أن أناساً من أصحاب النبي ﷺ ذكروا الكبائر وهو متكئ فقالوا: الشرك بالله، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وعقوق الوالدين، وقول الزور، والغلول، والسحر، وأكل الربا، فقال رسول الله ﷺ: «فأين تجعلون الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً؟» إلى آخر الآية^(٤).

(٢) الحديث في الصحيحين.

(١) أخرجه ابن مردويه.

(٤) قال ابن كثير: في إسناده ضعف وهو حسن.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(ذكر أقوال السلف في ذلك)

قال ابن جرير عن الحسن: أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر، فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله عز وجل أمر أن يعمل بها لا يعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك فقدم وقدموا معه، فلقى عمر رضي الله عنه، فقال: متى قدمت؟ فقال: منذ كذا وكذا، قال: أباذي قدمت؟ قال: فلا أدري كيف رد عليه. فقال: يا أمير المؤمنين إن ناساً ليقولني بمصر، فقالوا: إنا نرى أشياء في كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها، فأحبوا أن يلقوك في ذلك. قال: فاجمعهم لي، قال: فجمعتهم له. قال ابن عون - أظنه قال في يهو -: فأخذ أدناهم رجلاً فقال: أنشدك بالله ويحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم. قال: فهل أحصيته في نفسك؟ فقال: اللهم لا، قال: ولو قال نعم لخصمه. قال: فهل أحصيته في بصرك؟ فهل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أترك؟ ثم تبعهم حتى أتى على آخرهم، فقال: تكلمت عمر أمه أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟ قد علم رينا أن ستكون لنا سيئات، قال: وتلا ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ الآية. ثم قال: هل علم أهل المدينة؟ أو قال: هل علم أحد بما قدمت؟ قالوا: لا، قال: لو علموا لوعظت بكم^(١).

(أقوال ابن عباس في ذلك)

روى ابن جرير عن طاوس، قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال: رأيت الكبائر السبع التي ذكرهن الله ما هن؟ قال: هن إلى السبعين أدنى منهن إلى سبع، وقال عبد الرزاق: قيل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هن إلى السبعين أقرب؛ وقال ابن جرير عن سعيد بن جبير: أن رجلاً قال لابن عباس: كم الكبائر، سبع؟ قال: هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار. وعن ابن عباس في قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ قال: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. وسئل ابن عباس عن الكبائر فقال: كل شيء عصي الله به فهو كبيرة.

وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة، فمن قائل: هي ما عليه حد في الشرع، ومنهم من قال: هي ما عليه وعيد مخصوص من الكتاب والسنة، وقيل غير ذلك. قال أبو القاسم عبد الكريم الرافعي في كتابه (الشرح الكبير): ثم اختلف الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم في الكبائر، وفي الفرق بينها وبين الصغائر، ول بعض الأصحاب في تفسير الكبيرة وجوه: (أحدها): أنها المعصية الموجبة للحد، (والثاني): أنها المعصية التي يلحق صاحبها الوعيد الشديد بنص كتاب أو سنة، وهذا أكثر ما يوجد لهم وإلى الأول أميل، لكن الثاني أرفق لما ذكره عند تفسير الكبائر، (والثالث): قال إمام الحرمين: كل جريمة تنبئ بقلة أكرام مرتكبها بالدين ورقة الديانة فهي مبطللة للعدالة، (الرابع): ذكر القاضي أبو سعيد الهروي: أن الكبيرة كل فعل نص الكتاب على تحريمه، وكل معصية توجب في جنسها حداً من قتل أو غيره. ثم قال: وفصل (القاضي الروياني) فقال: الكبائر سبع: قتل النفس بغير الحق، والزنا، واللواط، وشرب الخمر، والسرقة، وأخذ المال غصباً، والقذف؛ وزاد في (الشامل) على السبع المذكورة: شهادة الزور، أضاف إليها صاحب (العدة): أكل الربا، والإفطار في رمضان بلا عذر، واليمين الفاجرة، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، والخيانة في الكيل والوزن، وتقديم الصلاة على وقتها، وتأخيرها عن وقتها بلا عذر، وضرب المسلم بلا حق، والكذب على رسول الله ﷺ عمداً، وسب أصحابه، وكتمان الشهادة بلا عذر، وأخذ الرشوة، والقيادة بين الرجال والنساء، والسعاية عند السلطان، ومنع الزكاة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة، ونسيان القرآن بعد تعلمه، وإحراق الحيوان بالنار، وامتناع

(١) أخرجه ابن جرير وقال ابن كثير: إسناده صحيح ومثني حسن.

المرأة من زوجها بلا سبب، والياس من رحمة الله، والأمن من مكر الله، ويقال الوقعة في أهل العلم وحملة القرآن. ومما يعد من الكبائر: الظهار، وأكل لحم الخنزير والميتة إلا عن ضرورة. قلت: وقد صنف الناس في الكبائر مصنفات منها ما جمعه شيخنا الحافظ (أبو عبد الله الذهبي) الذي بلغ نحواً من سبعين كبيرة، وإذا قيل: إن الكبيرة ما توعد عليها الشارع بالنار بخصوصها كما قال ابن عباس وغيره وما يتبع ذلك، اجتمع منه شيء كثير، وإذا قيل: كل ما نهى الله عنه فكثير جداً، والله أعلم.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَرِثَةً وَرِثَتُهُمَا مِمَّا كَسَبَا﴾ (٢٣١)

عن مجاهد قال، قالت أم سلمة: يا رسول الله يغزو الرجال ولا تغزى، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (٢٣١)، وقال عبد الرزاق عن معمر قال: نزلت هذه الآية في قول النساء ليتنا رجال فنجاهد كما يجاهدون، ونغزو في سبيل الله عز وجل. وقال ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس في الآية، قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله للذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة امرأتين برجل، ونحن في العمل هكذا، إن فعلت امرأة حسنة كتب لها نصف حسنة، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ الآية (٢٣١). قال ابن عباس: لا يتمنى الرجل فيقول: ليت لو أن لي مال فلان وأهله، فنهى الله عن ذلك، ولكن يسأل الله من فضله، وهو الظاهر من الآية، ولا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكه في الحق، فيقول رجل: لو أن لي مثل ما لفلان لعملته مثله فهما في الأجر سواء» الحديث فإن هذا شيء غير ما نهت عنه الآية، وذلك أن الحديث حض على تمنى مثل نعمة هذا، والآية نهت عن تمنى عين نعمة هذا، بقول: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي في الأمور الدنيوية وكذا الدينية، لحديث أم سلمة وابن عباس، وهكذا قال عطاء بن أبي رباح: نزلت في النهي عن تمنى ما لفلان، وفي تمنى النساء أن يكن رجالاً فيغزون (٢٣١).

ثم قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ﴾ أي كل له جزء على عمله بحسبه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. هذا قول ابن جرير، وقيل: المراد بذلك في الميراث أي كل يرث بحسبه، رواه الوابلي عن ابن عباس. ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم، فقال: ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ لا تمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض، فإن هذا أمر محتوم، أي أن التمني لا يجدي شيئاً، ولكن سلوني من فضلي أعطكم، فإني كريم وهاب، وقد روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «سألوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج» (٢٣١). ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَليماً﴾ أي هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقروا، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَليماً﴾.

﴿وَلِكُلِّ جَفَلْنَا مَوْلًىٰ وَمِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ مِمَّا تَوَدَّوْنَ تَوَيْبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا بِكُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٢٣٢)

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَفَلْنَا مَوْلًىٰ﴾ أي ورثة، وعن ابن عباس في رواية: أي عصبه، قال ابن جرير: والعرب تسمي ابن العم مولى كما قال الفضل بن عباس:

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا لا يظهرن بيننا ما كان مدفوننا

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) رواه ابن جرير.

(٤) أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود.

قال: ويعني بقوله: ﴿مما ترك الوالدان والأقربون﴾ من تركه والديه وأقربيه من الميراث، فتأويل الكلام: ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبه يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له. وقوله تعالى: ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ أي والذين تحالفتم بالآيمان المؤكدة أنتم وهم، فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة أن الله شاهد بينكم في تلك المعهود والمعاهدات، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، وأمروا أن يوفوا من عاقدوا ولا ينسوا بعد نزول هذه الآية معاهدة، قال البخاري عن ابن عباس: ﴿ولكل جعلنا موالى﴾ قال: ورثة، ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿ولكل جعلنا موالى﴾ نسخت، ثم قال: ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له^(١)، وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قوله: ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ الآية، قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾ نسخت، ثم قال: والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وكل حلف كان في الجاهلية فلم يزد الإسلام إلا شدة؛ وما يسرني أن لي حمر النعم وأنني نقضت الحلف الذي كان في دار الندوة»^(٢).

وقال محمد بن إسحاق عن (داود بن الحصين) قال: كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع مع ابن ابنها (موسى بن سعد) وكان يتيماً في حجر أبي بكر، فقرأت عليها: «والذين عاهدت أيمانكم» فقالت: لا، ولكن ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ قالت: إنما نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن حين أبي أن يسلم فحلف أبو بكر أن لا يورثه، فلما أسلم حين حمل على الإسلام بالسيف، أمر الله أن يورثه نصيبه^(٣). والصحيح الأول، وأن هذا كان في ابتداء الإسلام، يتوارثون بالحلف ثم نسخ وبقي تأثير الحلف بعد ذلك، وإن كانوا قد أمروا أن يوفوا بالمعهود والمعقود، والحلف الذي كانوا قد تعاقدوه قبل ذلك. وهذا نص في الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ورواية عن أحمد بن حنبل، والصحيح قول الجمهور (مالك والشافعي وأحمد) في المشهور عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾، أي ورثة من قرباته من أبويه وأقربيه، وهم يرثونه دون سائر الناس كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «الحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلاولى رجل ذكر» أي اقسمو الميراث على أصحاب الفرائض الذين ذكرهم الله في آيتي الفرائض، فما بقي بعد ذلك فأعطوه للنصبة، وقوله: ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ أي قبل نزول هذه الآية ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ أي من الميراث، فأبما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له، وقد قيل: إن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل وحكم الحلف الماضي أيضاً فلا توارث به، كما قال ابن عباس ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ قال: من النصرة والنصيحة والرفادة، وقال سعيد بن جبيرة: ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ أي من الميراث، وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ أي من النصرة والنصيحة والمعونة، لا أن المراد فآتوهم نصيبهم من الميراث حتى تكون الآية منسوخة، ولا أن ذلك كان حكماً ثم نسخ، بل إنما دلت الآية على الوفاء بالحلف المعقود على النصرة والنصيحة فقط، فهي (محكمة) لا (منسوخة) وهذا الذي قال فيه نظر، فإن من الحلف ما كان على المناصرة والمعونة، ومنه ما كان على الإرث كما حكاه غير واحد من السلف، وكما قال ابن عباس: كان المهاجري

(١) أخرجه البخاري عن ابن عباس.

(٢) رواه ابن جرير.

(٣) رواه ابن أبي حاتم.

يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه حتى نسخ ذلك؛ فكيف يقولون إن هذه الآية محكمة غير منسوخة؟ والله أعلم.

﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ: «لن يفتح قوم ولأمرهم امرأة» رواه البخاري، وكذا منصب القضاء وغير ذلك ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وستة نبي ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيماً عليها كما قال الله تعالى: ﴿واللرجال عليهن درجة﴾ الآية، وقال ابن عباس: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ يعني أمراء عليهن، أي تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله. وقال الحسن البصري: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تشكو أن زوجها لطمها، فقال رسول الله ﷺ: «القصاص» فأنزل الله عز وجل: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ الآية. فرجعت بغير قصاص، وقد أسنده ابن مردويه عن علي قال: أتى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار بامرأة له، فقالت: يا رسول الله إن زوجها فلان ابن فلان الأنصاري وإنه ضربها فأثر في وجهها، فقال رسول الله ﷺ: ليس له ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ أي في الأدب، فقال رسول الله ﷺ: «أردت أمراً وأراد الله غيره» أورد ذلك كله ابن جرير.

يقول تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ أي الرجل قيم على المرأة، أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا عوجت ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ: «لن يفتح قوم ولأمرهم امرأة» رواه البخاري، وكذا منصب القضاء وغير ذلك ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وستة نبي ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيماً عليها كما قال الله تعالى: ﴿واللرجال عليهن درجة﴾ الآية، وقال ابن عباس: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ يعني أمراء عليهن، أي تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله. وقال الحسن البصري: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تشكو أن زوجها لطمها، فقال رسول الله ﷺ: «القصاص» فأنزل الله عز وجل: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ الآية. فرجعت بغير قصاص، وقد أسنده ابن مردويه عن علي قال: أتى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار بامرأة له، فقالت: يا رسول الله إن زوجها فلان ابن فلان الأنصاري وإنه ضربها فأثر في وجهها، فقال رسول الله ﷺ: ليس له ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ أي في الأدب، فقال رسول الله ﷺ: «أردت أمراً وأراد الله غيره» أورد ذلك كله ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿فالمصالحات﴾ أي من النساء ﴿فانتات﴾، قال ابن عباس: يعني مطيعات لأزواجهن ﴿حافظات للقبب﴾ قال السدي وغيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله، وقوله: ﴿بما حفظ الله﴾ أي المحفوظ من حفظه الله. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظت في نفسها ومالك»، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ إلى آخرها^(١)، وقال الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت». وقوله تعالى: ﴿واللاتي يخافون نشوزهن﴾ أي النساء اللاتي تخوفون أن ينشزن على أزواجهن، والنشوز هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، الشاركة لأمره، المعرضة عنه، المبغضة له، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها، وليخوفها عقاب الله في عصيانه، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرّم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال، وقد قال رسول الله ﷺ: «لو كنت امرأة أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»^(٢)، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح». ورواه مسلم ولفظه: «إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح»، ولهذا قال تعالى: ﴿واللاتي يخافون نشوزهن فعضوهن﴾.

وقوله تعالى: ﴿واهاجرهن في المضاجع﴾، قال ابن عباس: الهجر هو أن لا يجامعها ويضامعها على

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة.

قراشها ويوليها ظهره، وكذا قال غير واحد وزاد آخرون في رواية: ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعظها فإن هي قبلت، وإلا هجرها في المضجع ولا يكلمها من غير أن يرد نكاحها وذلك عليها شديد. وقال مجاهد والشعبي: الهجر هو أن لا يضاجمها. وفي السنن والمسند عن (معاوية بن حيدة القشيري) أنه قال: يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت». وقوله: «واضربوهن» أي إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران، فلکم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع: «واتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان»^(١)، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً نكروهن، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف». وكذا قال ابن عباس وغير واحد: ضرباً غير مبرح. قال الحسن البصري: يعني غير مؤثر، قال الفقهاء: هو أن لا يكسر فيها عضواً ولا يؤثر فيها شيئاً، وقال ابن عباس: يهجرها في المضجع فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرح، ولا تكسر لها عظماً فإن أقبلت، وإلا فقد أحل الله لك منها القدية. وقال النبي ﷺ: «لا تضربوا إماء الله»، فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: ذفرت النساء على أزواجهن، فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن، فأطاف بال رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أطاف بال محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن ليس أولئك بخياركم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِن أظعنكم فلا تبنوا عليهن سبيلاً﴾ أي إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها، مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها. وقوله: ﴿إِن الله كان عالياً كبيراً﴾ تهديد للرجال إذا بقوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْشِرُوا بِحَكَمِ اللَّهِ وَكَمَالِ ذَاتِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَتَنَبَّأُ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلِيماً حَكِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

ذكر الحال الأول، وهو: إذا كان النفور والنشوز من الزوجة، ثم ذكر الحال الثاني: وهو إذا كان النفور من الزوجين فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْشِرُوا بِحَكَمِ اللَّهِ وَكَمَالِ ذَاتِ اللَّهِ﴾، وقال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنتهما المحاكم إلى جنب ثقة، ينظر في أمرهما ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تقام أمرهما وطالت خصومتها، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة وثقة من قوم الرجل، ليجتمعا فينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة، مما يراه من التفريق أو التوفيق، وتشوق الشارع إلى التوفيق، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾، وقال ابن عباس: أمر الله عز وجل أن يعينوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، ورجلاً من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء فإن كان الرجل هو المسيء حججوا عنه امرأته وقصروه على النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة قصروها على زوجها ومنعوا النفقة، فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز، فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين وكره الآخر ثم مات أحدهما فإن الذي رضي يرضى ولا يبرئ الكاره الراضي. عن ابن عباس قال: بعثت أنا ومعاوية حكيمين، قال معمر: بلغني أن عثمان بعثهما وقال لهما: إن رأيتما أن تجمعا جمعتهما، وإن رأيتما أن تفرقا ففرقا. وقال أنبأنا ابن جريج حدثني ابن أبي مليكة أن (عقيل بن أبي طالب) تزوج (فاطمة بنت عتبة بن ربيعة) فقالت: تصبر إلي وأنفق عليك، فكان إذا دخل عليها قالت: أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة؟ فقال: على يسارك في النار إذا دخلت؟ فشدت عليها ثيابها، فجاءت عثمان فذكرت له ذلك، فضحك، فأرسل ابن عباس

(١) عوان: أي أسيرات، شبهن عليه السلام بالأسيرات شفقة ورحمة.

(٢) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

ومعاوية، فقال ابن عباس: لأفرقن بينهما فقال معاوية: ما كنت لأفرق بين شخصين من بني عبد مناف، فأتياهما فوجداهما قد أغلقت عليهما أبوابهما فرجعا^(١). وعن محمد بن سيرين عن عبيدة قال: شهدت علياً وجاءته امرأة وزوجها مع كل واحد منهما فقام^(٢) من الناس، فأخرج هؤلاء حكماً وهؤلاء حكماً، فقال علي للحكمين: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتم أن تجعما جمعتما. فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي وعلي، وقال الزوج أما الفرقة فلا، فقال علي: كذبت، والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله عز وجل لك وعليك، رواه ابن أبي حاتم.

وقد أجمع العلماء على أن الحكمين لهما الجمع والفرقة، حتى قال إبراهيم النخعي إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا، وهو رواية عن مالك، وقال الحسن البصري: الحكمان يحكمان في الجمع لا في الفرقة، وكذا قال قتادة وزيد بن أسلم، وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور وداود، ومأخذهم قوله تعالى: ﴿إِنْ يريدا إِصْلَاحًا يوفِقْ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾، ولم يذكر التفريق، وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما في الجمع والفرقة بلا خلاف. وقد اختلف الأئمة في الحكمين: هل هما منصوبان من جهة الحاكم فيحكمان وإن لم يرض الزوجان؟ أو هما وكيلان من جهة الزوجين؟ على قولين، والجمهور على الأول لقوله تعالى: ﴿فابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا﴾ فسماهما حكمين، ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه، وهذا ظاهر الآية. والجديد من مذهب الشافعي وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، الثاني منهما لقول علي رضي الله عنه للزوج حين قال أما الفرقة فلا، قال: كذبت حتى تقر بما أقرت به، قالوا: فلو كانا حكمين لما افتقر إلى إقرار الزوج، والله أعلم.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْحَارِثِيْنَ﴾
 ﴿وَالْحَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾
 ﴿١٦٦﴾

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الحالات، فهو المستحق منهم أن يوحده ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «أتدري ما حق الله على العباد؟» قال الله ورسوله أعلم، قال: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثم قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم» ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾، وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، ثم عطف على الإحسان إليهما بالإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء كما جاء في الحديث: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة»^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن يتفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم، ثم قال: ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون من يقوم بكفائتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم، وسيأتي الكلام على الفقير والمسكين في سورة براءة. وقوله: ﴿وَالْحَارِثِيْنَ وَالْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ قال ابن عباس: ﴿وَالْحَارِثِيْنَ الْقُرْبَىٰ﴾ يعني الذي بينك وبينه قرابة، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد، وقال نوف البكالي في قوله: ﴿وَالْحَارِثِيْنَ الْقُرْبَىٰ﴾ يعني الجار المسلم ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ يعني

(١) أخرجه عبد الرزاق من حديث ابن عباس.

(٢) الفقام: الجماعة لا واحد له.

(٣) أخرجه النسائي حديث سلمان بن عامر.

اليهودي والنصراني رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقال مجاهد أيضاً في قوله: ﴿والجار الجنب﴾ يعني: الرفيق في السفر، وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار فلنذكر منها ما تيسر وبالله المستعان:

(الحديث الأول): قال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» أخرجاه في الصحيحين.

(الحديث الثاني): عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»^(١).

(الحديث الثالث): قال الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرام حرمه الله ورسوله وهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بحليلة جاره»، قال: «ما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام إلى يوم القيامة، قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة آيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره»^(٢).

(الحديث الرابع): قال أبو بكر البزار عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الجيران ثلاثة: جار له حق واحد وهو أدنى الجيران حقاً، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران حقاً، فأما الجار الذي له حق واحد فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار، وأما الجار الذي له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم».

(الحديث الخامس): روى الإمام أحمد عن عائشة: أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: إن لي جارين فألى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً» ورواه البخاري من حديث شعبة به.

وقوله تعالى: ﴿والصاحب بالجنب﴾ عن علي وابن مسعود قالوا: هي المرأة، وقال ابن عباس ومجاهد: هو الرفيق في السفر، وقال سعيد بن جبير: هو الرفيق الصالح، وقال زيد بن أسلم: هو جلسك في الحضر ورفيقك في السفر. وأما ابن السبيل فمن ابن عباس وجماعة: هو الضيف، وقال مجاهد والضحاك ومقاتل: هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر، وهذا أظهر وإن كان مراد القائل بالضيف المار في الطريق فهما سواء وسيأتي الكلام على أبناء السبيل في سورة براءة وبالله الثقة وعليه التكلان.

وقوله تعالى: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ وصية بالأرقاء لأن الرفيق ضعيف الحيلة، أسير في أيدي الناس، فلهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم» فجملة يرددها حتى ما يفيض بها لسانه، وقال الإمام أحمد عن المقدم بن معديكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة» ورواه النسائي وإسناده صحيح.

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لفهرمان له: هل أعطيت الرفيق قوتهم؟ قال: لا. قال: فانطلق فأعطهم فإن رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم»^(٣)، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق»^(٤) وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقميتين أو أكلة أو أكلتين فإنه ولي حره وعلاجه» أخرجاه، ولفظه للبخاري؛ ولمسلم: «فليقدمه معه فليأكل»، فإن كان الطعام مشفوهاً قليلاً، فليضع في يده أكلة أو أكلتين» وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) تفرد به أحمد وله شاهد في الصحيحين.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم؛ أخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ كَانَ مِخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي مختالاً في نفسه، معجباً متكبراً فخوراً على الناس يرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بفيض، قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ كَانَ مِخْتَالًا﴾ يعني متكبراً، ﴿فَخُورًا﴾ يعني: بعدما أعطي وهو لا يشكر الله تعالى، يعني: يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه، وهو قليل الشكر لله على ذلك، وقال ابن جرير عن أبي رجاء الهروي: لا تجد ستم الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، وثلاً: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ الآية، ولا عاقاً إلا وجدته جباراً شقيماً، وثلاً: ﴿ويزراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيماً﴾. وقال مطرف: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه، فلقيته، فقلت: يا أبا ذر بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ ثَلَاثَةً وَيَبْغِضُ ثَلَاثَةً﴾ قال: أجل، قلت: من الثلاثة الذين يبغض الله؟ قال: المختال الفخور أو ليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل، ثم قرأ الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ كَانَ مِخْتَالًا فَخُورًا﴾ قلت: يا رسول الله أوصني قال: إياك وإسبال الإزار. فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (١٣٧) ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَوْ قَرَّبًا كَسَاةً قَرِيبًا﴾ (١٣٨) ﴿وَمَا آتَاهُمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (١٣٩).

يقول تعالى ذمماً للذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من ير الوالدين، والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم من الأرقاء، ولا يدفعون حق الله فيها ويأمرون الناس بالبخل أيضاً، وقد قال رسول الله ﷺ: ﴿إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمْرُهُم بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمْرُهُم بِالْفَجْرِ فَفَجَرُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، فالبخيل جحودٌ لنعمة الله ولا تظهر عليه، ولا تبين لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ وأنه على ذلك لشهيد، أي بحاله وشمائله، ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾، وقال ههنا: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، والكفر هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه، ويكتمها ويجعلها فهو كافر لنعمة الله عليه، وفي الحديث: ﴿إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ نِعْمَةً عَلَى عَبْدٍ أَحَبَّ أَنْ يَظْهَرَ أَثَرَهَا عَلَيْهِ﴾، وفي الدعاء النبوي: ﴿واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك قابليها، وأتممها علينا﴾. وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ وكتمانهم ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى، فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء وكذلك الآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً النَّاسِ﴾، فإنه ذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرثيين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله. وفي حديث الثلاثة الذين هم أول من تسجر بهم النار، وهم: (العالم والغازي والمنفق المرازون بأعمالهم) يقول صاحب المال ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك، فيقول الله: كذبت إنما أردت أن يقال جواد فقد قيل، أي أخذت جزاءك في الدنيا وهو الذي أردت بفعلك، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لعدي بن حاتم: ﴿إِنَّ أَبَاكَ أَرَادَ أَمْرًا فَبَلَّغَهُ﴾. وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ سئل عن (عبد الله بن جدعان)، هل ينفعه إنفاقه وإعنتاه؟ فقال: لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية. أي

إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح، وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان، فإنه سؤل لهم وأمل لهم، وقارنهم فحسن لهم القبايح، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾، ولهذا قال الشاعر:

عن العره لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي
ثم قال تعالى: ﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله﴾ الآية، أي وأي شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة، وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله، رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن يحسن عمله، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها؟! وقوله: ﴿وكان الله بهم عليماً﴾ أي وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاصلة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويولمه رشده، ويقضه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرده عن جنبه الأعظم الإلهي، الذي من طرده عن بابه فقد خاب، وخسر في الدنيا والآخرة عباداً بالله من ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئاً لِّدَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً بَضِعَتْهَا رِيْبَةٌ مِّنْ لَّدُنْهُ أَثَرًا عَظِيماً ﴿١٦﴾ لَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿١٧﴾ تَوَهَّيْ بِوَدِّ الْإِيْمَانِ كَفَرُوا وَعَصَوْنَا أَرْسُلَ لَوْ سَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضَ وَلَا يَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ سَابِقًا ﴿١٨﴾﴾

يخبر جل ثناؤه عباده بأنه سيوفيهم أجورهم، ولا يظلم خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل، ولا مثقال ذرة بل يوفيهما له ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط﴾ الآية، وقال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾، وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «فيقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار»؛ وفي لفظ: «أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار» فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقول أبو سعيد: اقرأوا إن شئتم ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ الآية. وقال ابن أبي حاتم: قال عبد الله بن مسعود: يؤتى بالعبد أو الأمة يوم القيامة فينادي مناد على رؤوس الأولين والآخرين: هذا فلان ابن فلان، من كان له حق فليأت إلى حقه، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أو أمها أو أخيها أو زوجها، ثم قرأ: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾، فيغفر الله من حقه ما يشاء ولا يغفر من حقوق الناس شيئاً، فينصب للناس، فيقول: اتوا إلى الناس حقوقهم، فيقول: يا رب فنيب الدنيا من أين أوتيتهم حقوقهم؟ فيقول: خذوا من أعمالهم الصالحة فأعطوا كل ذي حق حقه بقدر مظلمته، فإن كان ولياً لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة، ثم قرأ علينا: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾، وإن كان عبداً شقيماً قال الملك: رب فنيب حسناته وبقي طالبون كثير، فيقول: خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته، ثم صكوا له صكاً إلى النار ورواه ابن جرير. ولبعض هذا الأثر شاهد في الحديث الصحيح.

وروي عن سعيد بن جبیر في قوله: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾، فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ولا يخرج من النار أبداً، وقد استدل له بالحديث الصحيح: أن العباس قال يا رسول الله: إن عملك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء؟ قال: نعم هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار وقد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار، بدليل ما رواه أنس أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزي بها في الآخرة وأما الكافر فيطمم بها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة﴾^(١). وقال الحسن وقتادة: ﴿ويؤتى من لئنه أجراً عظيماً﴾

(١) أخرجه مسلم من حديث أنس.

يعني الجنة، نسأل الله رضاه والجنة. وروى ابن أبي حاتم عن أبي عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة سمعت إخواني بالبصرة يزعمون أنك تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة»، فقال أبو هريرة: والله بل سمعت نبي الله ﷺ يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾. وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ يقول تعالى مخيراً عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة، حين يجيء من كل أمة بشهيد يعني الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم﴾ الآية. روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ علي»، فقلت: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري». فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً؟﴾ فقال: أحسبك الآن؟ فإذا عيناه تذرفان.

وقوله تعالى: ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾ أي لو انشقت وبلغتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ، كقوله: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يدها﴾ الآية. وقوله: ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئاً، عن سعيد بن جبيرة قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال له: سمعت الله عز وجل يقول - يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة - إنهم قالوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾، فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام، قالوا: تعالوا فلنجد، فقالوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فحتم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾^(١). وقال عبد الرزاق عن سعيد بن جبيرة قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أشياء تختلف علي في القرآن، قال: ما هو، أشك في القرآن؟ قال: ليس هو بالشك، ولكن اختلاف. قال: فهات ما اختلف عليك من ذلك، قال: أسمع الله يقول: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾، وقال: ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ فقد كتموا، فقال ابن عباس: أما قوله ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾، فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يتعاطمه ذنب أن يغفره، ولا يغفر شركاً، جحد المشركون فقالوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ رجاء أن يغفر لهم، فحتم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك ﴿يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾.

وقال الضحاك: إن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال: يا ابن عباس قول الله تعالى ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾، وقوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، فقال له ابن عباس: إني أحسبك قمت من عند أسحائك، فقلت ألقى علي ابن عباس متشابه القرآن، فإذا رجعت إليهم فأخبرهم: أن الله تعالى يجمع الناس يوم القيامة في بقيع واحد، فيقول المشركون: إن الله لا يقبل من أحد شيئاً إلا ممن وحده، فيقولون تعالوا نجحد، فيسألهم فيقولون: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، قال: فيحتم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم، وتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين، فعند ذلك يمتنون لو أن الأرض سويت بهم ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾^(٢).

(١) أخرجه ابن جرير.

(٢) أخرجه ابن جرير عن الضحاك.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۗ وَإِن كُنْتُمْ مَرْمِةً أَوْ حَسَةً أَوْ حِسَابًا أَوْ حَبْلًا مِّنَ النَّخْلِ أَوْ لَبَنًا أَوْ تَمْرًا أَوْ نَخْلًا فَمَسُوا مَا كَانُوا يَجْعَلُونَ إِلَهًُا فَاعْتَصِمُوا ۗ بَل لَّعَنُوا لِمَ كَانُوا يَفْعَلُونَ ۗ ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر، الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، وعن قربان مجالها - التي هي المساجد - للجنب إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب من غير مكث؛ وقد كان هذا قبل تحريم الخمر كما دل عليه الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿سَأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية، فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر فقال: «اللهم بين لنا في الخمر بيناً شافياً»، فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه، فقال: «اللهم بين لنا في الخمر بيناً شافياً»، فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات، حتى نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ فقال عمر: انتهينا انتهينا. وفي رواية عن عمر بن الخطاب في قصة تحريم الخمر، فذكر الحديث وفيه: فنزلت الآية التي في النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادي: أن لا يقربن الصلاة سكران.

(سبب آخر): عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً قال فقراً: قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(١) وقال العوفي عن ابن عباس في الآية: إن رجالاً كانوا يأتون الصلاة وهم سُكَارَىٰ قبل أن يحرم الخمر، فقال الله: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ الآية، رواه ابن جرير، وعن قتادة: كانوا يجتنبون السكر عند حضور الصلوات، ثم نسخ بتحريم الخمر، وقال الضحاك: لم يعن بها سكر الخمر، وإنما عنى بها سكر النوم. ثم قال ابن جرير: والصواب أن المراد سكر الشراب، قال: ولم يتوجه النهي إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب لأن ذلك في حكم المجنون، وإنما حوطب بالنهي الثعلب الذي يفهم التكليف، وهذا حاصل ما قاله. وقد ذكره غير واحد من الأصوليين، وهو أن الخطاب يتوجه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذي لا يدري ما يقال له، فإن الفهم شرط التكليف، وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار، فلا يتسكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً والله أعلم. وعلى هذا فيكون كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام والمداومة على الطاعة لأجل ذلك، وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ بهذا أحسن ما يقال في حد السكران أنه الذي لا يدري ما يقول، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها، وقد قال الإمام أحمد عن أسق قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نعت أحدكم وهو يصلي فليتنصرف ولينم حتى يعلم ما يقول»^(٢). وفي بعض ألفاظ الحديث: «فلعله يذهب يستغفر في نفسه».

وقوله تعالى: ﴿لَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ عن ابن عباس قال: لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابري سبيل، قال: تمر به مراً ولا تجلس، يروى أن رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد فكانت تصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم، فيردون الماء ولا يجدون مراً إلا في المسجد فأنزل الله: ﴿لَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ يرشدهم لصحته ما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «سدوا كل خوخة في

(١) رواه ابن أبي حاتم والترمذي.

(٢) انفراد بإخراجه البخاري.

المسجد إلا خوخة أبي بكر، وهذا قاله في آخر حياته ﷺ علماً منه أن أبا بكر رضي الله عنه سبلي الأمر بعده، ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمر المهمة فيما يصلح للمسلمين، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابَه رضي الله عنه، ومن روى «إلا باب علي» كما وقع في بعض السنن فهو خطأ، والصواب ما ثبت في الصحيح. ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد، ويجوز له المرور، وكذا الحائض والنفساء أيضاً في معناه، إلا أن بعضهم قال: يحرم مرورهما لاحتمال التلويث، ومنهم من قال: إن أمنت كل واحدة منهما التلويث في حال المرور جاز لها المرور وإلا فلا، وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «ناوليني الخُمرة من المسجد»، فقلت: «إني حائض»، فقال: «إن حيضتك ليست في يدك»، وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناها والله أعلم. وروى أبو داود عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب»، قال أبو مسلم الخطابي: ضعف هذا الحديث جماعة، لكن رواه ابن ماجه عن أم سلمة عن النبي ﷺ. فأما ما رواه أبو عيسى الترمذي من حديث سالم بن أبي حفصة عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي لا يحل لأحد يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك» فإنه حديث ضعيف لا يثبت، فإن سالماً هذا متروك وشيخه عطية ضعيف والله أعلم.

وعن علي: «ولا جنباً إلا هابري سبيل» قال: لا يقرب الصلاة إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة فلا يجد الماء فيصلي حتى يجد الماء. ويستشهد لهذا القول بالحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم تجد الماء عشر حجج، فإذا وجدت الماء فأمه بشرتك فإن ذلك خير لك^(١)». ثم قال ابن جرير بعد حكايته القولين: والأولى قول من قال «ولا جنباً إلا هابري سبيل» أي إلا هابري طريق فيه، وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب في قوله: «وإن كنتم مرضى أو على سفر» إلى آخره، فكان معلوماً بذلك أن قوله: «ولا جنباً إلا هابري سبيل» حتى تفتسلوا، لو كان معنياً به المسافر لم يكن لإعادة ذكره في قوله: «وإن كنتم مرضى أو على سفر» معنى مفهوم، وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة متصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضاً جنباً حتى تفتسلوا إلا هابري سبيل. قال: والعاير السبيل المجتاز مرآً وقطعاً، يقال منه: عبرت بهذا الطريق فأنا أعيره عبراً وعبوراً، ومنه يقال: عبر فلان النهر إذا قطعه وجاوزه، ومنه قيل للناقة القوية على الأسفار: هي عبر الأسفار لقوتها على قطع الأسفار، وهذا الذي نصره هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية، وكأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها، وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة، وهي الجنابة المباحة للصلاة ولمحلها أيضاً. والله أعلم.

وقوله تعالى: «حتى تفتسلوا» دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة (أبو حنيفة ومالك والشافعي) أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يفتسل أو يتيمم إن عدم الماء، أو لم يقدر على استعماله بطريقة، وذهب (الإمام أحمد) إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد، لما روى بسند صحيح أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك. قال سعيد بن منصور في سننه عن عطية بن يسار قال: رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضأوا وضوء الصلاة، وهذا إسناده صحيح على شرط مسلم، والله أعلم.

وقوله تعالى: «وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً» أما المرض المبيح للتيمم فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء قوات عضو أو

(١) رواه أحمد وأهل السنن من حديث أبي ذر.

شينة أو تطويل البرء، ومن العلماء من جوز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية، قال مجاهد: نزلت في رجل من الأنصار كان مريضاً، فلم يستطع أن يقوم يتوضأ، ولم يكن له خادم فيتأوله، فأثنى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله هذه الآية. والسفر معروف ولا فرق فيه بين الطويل والقصير، وقوله: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ الغائط هو المكان المظلم من الأرض، كني بذلك عن التغوط وهو الحدث الأصغر.

وأما قوله تعالى: ﴿أو لامستم النساء﴾ فقرأه لمستم ولا مستم، واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك على قولين: (أحدهما) أن ذلك كتابة عن الجماع لقوله: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ وقال تعالى: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أو لامستم النساء﴾ قال: الجماع. وقال ابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال: ذكروا اللبس، فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع، وقال ناس من العرب: اللبس الجماع، قال: فقلت ابن عباس فقلت له: إن ناساً من الموالي والعرب اختلفوا في اللبس، فقالت الموالي: ليس بالجماع، وقالت العرب: الجماع، قال: فمن أي الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالي، قال: غلب فريق الموالي، إن اللبس والمس والمباشرة: الجماع ولكن الله يكتفي بما شاء بما شاء. وقد صح من غير وجه عن عبد الله بن عباس أنه قال ذلك. وقال آخرون: عنى الله تعالى بذلك كل من لمس بيد أو بغيرها من أعضاء الإنسان وأوجب الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه. عن عبد الله بن مسعود قال: القبلة عن المس وفيها الوضوء، وروى الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال: يتوضأ الرجل من المباشرة، ومن اللبس بيده، ومن القبلة، وكان يقول في هذه الآية: ﴿أو لامستم النساء﴾ هو الغمز، وروى مالك عن عبد الله بن عمر عن أبيه أنه كان يقول: قبلة الرجل امرأته وجسه بيده من الملامسة، فمن قبّل امرأته أو جسها بيده فعليه الوضوء، وروى الحافظ أبو الحسن الدارقطني في سنه عن عمر بن الخطاب نحو ذلك، ولكن روي عنه من وجه آخر أنه كان يقبل امرأته ثم يصلي ولا يتوضأ، فالرواية عنه مختلفة، فيحمل ما قاله في الوضوء إن صح عنه على الاستحباب والله أعلم. والقول بوجود الوضوء من المس هو قول (الشافعي ومالك) والمشهور عن أحمد بن حنبل، قال ناصروه: قد قرئ في هذه الآية لامستم ولمستم، واللمس يطلق في الشرع على الجنس باليد قال تعالى: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ أي جسوه، وقال ﷺ لماعز حين أقر بالزنا يعرض له بالرجوع عن الإقرار: «لعلك قبلت أو لمست» وفي الحديث الصحيح: «واليد زناها للمس». وقالت عائشة رضي الله عنها: قلّ يوم إلا ورسول الله ﷺ يطوف علينا فيقبل ويلمس، ومنه ما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة وهو يرجع إلى الجنس باليد على كلا التفسيرين، قالوا: ويطلق في اللغة على الجنس باليد، كما يطلق على الجماع، قال الشاعر:

ولمست كفي كفه أطلب الغنى

وقال ابن جرير وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله ﴿أو لامستم النساء﴾ الجماع دون غيره من معاني اللبس لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قيل لبعض نساؤه ثم صلى ولم يتوضأ. وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يتوضأ ثم يقبل، ثم يصلي ولا يتوضأ، وحدث عروة عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قبل بعض نساؤه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ، قلت: من هي إلا أنت؟ فضحكت^(١). وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقبلها وهو صائم ثم لا يفطر ولا يحدث وضوءاً.

وقوله تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعد طلب الماء، فمتى طلبه فلم يجده جاز له حيثئذ التيمم لحديث (عمران بن حصين)

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصل مع القوم، فقال: «يا فلان ما منعك أن تصلي مع القوم، أنت برجل مسلم؟» قال: بلى يا رسول الله ولكن أصابتنى جنابة ولا ماء، قال: «عليك بالصعيد فإنه يكفيك»^(١) ولهذا قال تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ فالتيمم في اللغة: هو القصد. تقول العرب: تيممك الله بحفظه أي قصدك، ومنه قول امرئ القيس شعراً:

ولما رأت أن المنية ردها وأن الحصى من تحت أقدامها دامي

تيممت العين التي عند ضارج يضيء عليها الفيء عرمضها طامي

والصعيد قيل: هو كل ما صعد على وجه الأرض، فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والنبات وهو قول مالك، وقيل: ما كان من جنس التراب كالرمل والزرنيخ والنورة وهذا مذهب أبي حنيفة، وقيل: هو التراب فقط، وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهما واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فتصيح صعيداً زلقاً﴾ أي تراباً أملس طيباً، وبما ثبت في صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس ثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء». وفي لفظ: «وجعلت ترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» قالوا فخصص الطهوية بالتراب في مقام الامتنان، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه، والطيب ههنا: قيل الحلال، وقيل الذي ليس بنجس.

وقوله تعالى: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ التيمم بدل عن الوضوء في التطهير به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال: أحدها - وهو مذهب الشافعي في الجديد - أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين، لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقاً على ما يبلغ المنكبين وعلى ما يبلغ المرفقين كما في آية الوضوء، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفين كما في آية السرة: ﴿فاغسلوا أيديهما﴾، قالوا: وحمل ما أطلق ههنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهوية، وذكر بعضهم ما رواه الدارقطني عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «التيمم ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين»^(٢). والقول الثاني: أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين، وهو قول الشافعي في القديم، والثالث: أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة لما روي أن رجلاً أتى عمر فقال: إني أجيت قلم أجده ماء، فقال عمر: لا تصل. قال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا قلم نجد ماء، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمسكت في التراب فصليت، فلما أتينا النبي ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك وضرب النبي ﷺ بيده الأرض ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه»^(٣). (طريق أخرى): قال أحمد عن سليمان الأعمش، حدثنا شقيق قال: كنت قاعداً مع (عبد الله) و(أبي موسى) فقال أبو يعلى لعبد الله: لو أن رجلاً لم يجد الماء، لم يصل؟ فقال عبد الله ألا تذكر ما قال عمار لعمر: ألا تذكر إذ بعثني رسول الله ﷺ وإياك في إبل فأصابتنى جنابة فتمرغت في التراب، فلما رجعت إلى رسول الله ﷺ أخبرتته، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «إنما كان يكفيك أن تقول هكذا، وضرب بكفيه إلى الأرض، ثم مسح كفيه جميعاً، ومسح وجهه مسحة واحدة بضربة واحدة؟» فقال عبد الله: لا جرم ما رأيت عمر قنع بذلك، قال: فقال له أبو موسى: فكيف بهذه الآية في سورة النساء: ﴿فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾؟ قال: فما درى عبد الله ما يقول، وقال: لو رخصنا لهم في التيمم لأوشك أحدهم إذا برد الماء على جلده أن يتيمم. وقال في المائدة: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾، فقد استدل بذلك الشافعي على أنه لا بد في التيمم أن يكون بتراب طاهر له غبار يعلق بالوجه

(١) رواه الإمام أحمد من حديث عمران بن حصين.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والدارقطني عن ابن عمر.

(٣) رواه النسائي وأحمد.

واليدين منه شيء.

وقوله تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ أي في الدين الذي شرعه لكم ﴿ولكن يريد ليظركم﴾ فلهذا أباح التيمم إذا لم تجدوا الماء أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد، والتيمم نعمة عليكم لعلكم تشكرون، ولهذا كانت هذه الأمة مخصصة بمشروعية التيمم دون سائر الأمم، كما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل»، وفي لفظ: «فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهْرُهُ، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأَعْطَيْتِ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ يَبْعَثُ النَّبِيَّ إِلَى قَوْمِهِ وَيَبْعَثُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً». وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً﴾ أي ومن عفوه عنكم وغفرانه لكم أن شرع لكم التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء، توسعة عليكم ورخصة لكم، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة من سكر حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنابة حتى يفتسل، أو حدث حتى يتوضأ إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء، فإن الله عز وجل قد أرحص في التيمم - والحالة هذه - رحمة بعباده ورافة بهم، وتوسعة عليهم، والله الحمد والمنة.

(ذكر سبب نزول مشروعية التيمم)

وإنما ذكرنا ذلك هنا لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة، وبيانه أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر، والخمر إنما حرم بعد أخذ بيسير، في محاصرة النبي ﷺ لبي النصير، وأما المائدة فإنها من آخر ما نزل ولا سيما صدرها، فناسب أن يذكر السبب هنا وبالله الثقة. قال البخاري عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاه أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء! قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يظعن بيده في خاصرتي، ولا يمنعني من التحرك إلا مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ على غير ماء حين أصبح، فأنزل الله آية التيمم فتميموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا المقد تحت.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن ابن عباس عن عمار بن ياسر: أن رسول الله ﷺ عزم يذات الجيش ومعه زوجته عائشة، فانقطع عقد لها من جزع ظفار، فحبس الناس ابتغاء عقدها ذلك حتى أضاء الفجر وليس مع الناس ماء، فأنزل الله على رسوله رخصة التطهير بالصعيد الطيب، فقام المسلمون مع رسول الله ﷺ فضربوا بأيديهم إلى الأرض ثم رفعوا أيديهم ولم يفضوا من التراب شيئاً فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب، ومن بطون أيديهم إلى الأباط.

(حديث آخر): قال الحافظ ابن مردويه عن الأسلع بن شريك، قال: كنت أرحل ناقة رسول الله ﷺ فأصابني جنابة في ليلة باردة، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة، فكرهت أن أرحل ناقة رسول الله ﷺ وأنا جنب، وخشيت أن اغتسل بالماء البارد فأمرت أو أمرض، فأمرت رجلاً من الأنصار فرحلها، ثم رضفت أحجاراً فأسخنت بها ماء واغتسلت، ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: «يا أسلع ما لي أرى رحلتك قد تغيرت؟» قلت يا رسول الله: لم أرحلها، رحلها رجل من الأنصار، قال: «ولم؟» قلت: «إني أصابني جنابة فخشيت الفر على نفسي، فأمرت أن يرحلها ورضفت أحجاراً فأسخنت بها ماء فاغتسلت به، فأنزل الله تعالى:

﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً﴾ وقد روي من وجه آخر عنه .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَبِيًّا مِنَ الْكِتَابِ يَشْكُرُونَ الْمَلَائِكَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ (٤١) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَسْمَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٢)﴾ **بَيْنَ الَّذِينَ هَادُوا يَحْكُمُونَ الْكَلِمَةَ عَنْ مَوَاضِعِهِ. وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَمْرٌ غَيْرٌ مُسْمِعٌ وَرَاعَيْنَا لِيًّا بِالْيَسِينِ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ أُوتُوا أَنْتُمْ قَالُوا تَجَمُّعًا وَأَهْلُنَا وَسَمِعْنَا وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْرَبٌ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤١)﴾ .**

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، أنهم يشكرون الفضالة بالهدى، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ ليشتروا به ثمنًا قليلاً من حطام الدنيا ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ أي يودون لو تكفروا بما أنزل عليكم أيها المؤمنون، وتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع، ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ أي: هو أعلم بهم ويحذركم منهم، ﴿وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً﴾ أي: كفى به ولياً لمن لجأ إليه ونصيراً لمن استنصره . ثم قال تعالى: ﴿من الذين هادوا﴾ من في هذا لبيان الجنس كقوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾، وقوله: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصداً منهم واقتراء، ﴿ويقولون سمعنا﴾ أي: سمعنا ما قلته يا محمد، ولا نطيعك فيه . . . هكذا فسره مجاهد وهو المراد، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم، وأنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة .

وقولهم: ﴿واسمع غير مسمع﴾ أي: اسمع ما نقول لا سمعت، رواه ابن عباس، وقال مجاهد والحسن: واسمع غير مقبول منك، قال ابن جرير: والأول أصح وهو كما قال، وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله ﴿وراعنا لياً بالسنتهم وطعنا في الدين﴾ أي: يوهمون أنهم يقولون راعنا سمعك بقولهم راعنا، وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا﴾، ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه: ﴿ولياً بالسنتهم وطعنا في الدين﴾ يعني: بسبهم النبي ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرونا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي: قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فقليلًا ما يؤمنون﴾، والمقصود أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً .

﴿وَأَنبَأَهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مَا نَرَأَاهُمْ عَلَىٰ مَا كُفِّرُوا بَعْدَ مَا عَلِمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَمَا أَهْمَتِ الْقُرْآنُ وَكَانَ أَمْرٌ مَعْمُولًا (٤٢)﴾ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَّخِذُ الْيَهُودَ وَنَصَارَةَ إِيمَانًا وَمَنْ يَتَّخِذْ بِاللَّهِ قَدِيرًا أَفْرَقَ إِيمَانًا عَظِيمًا (٤٣)﴾ .**

يأمر الله تعالى أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم، الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، ومتهدداً لهم إن لم يفعلوا بقوله: ﴿من قبل أن تطمس وجوهاً فتردها على آديها﴾ . قال بعضهم: معناه من قبل أن تطمس وجوهاً، فطمسها هو ردها إلى الأدبار وجعل أبطارهم من ورائهم، ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن تطمس وجوهاً فلا تبقي لها سمعاً ولا بصرًا ولا أنفاً، ومع ذلك تردعها إلى ناحية الأدبار، وقال ابن عباس: طمسها أن تعمى ﴿فتردها على آديها﴾ يقول: نجعل وجوههم من قبل أفتيتهم فيمشون القهقري، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه، وهذا أبلغ في العقوبة والنكال، وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة يهرعون ويمشون القهقري على آديارهم، وهذا كما قال بعضهم في قوله: ﴿إننا جعلنا في

اعتاقهم أخلاقاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدّاً الآية: أي هذا مثل سوء ضربه الله لهم في ضلالهم ومنعهم عن الهدى، قال مجاهد: ﴿من قبل أن تطمس وجوههم﴾ يقول عن صراط الحق ﴿فتردها على أديارهم﴾ أي في الضلال، قال السدي: ﴿فتردها على أديارهم﴾ فنمنعها عن الحق، قال: نرجعهم كفاراً ونردهم قردة. وقد ذكر أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية. قال ابن جرير عن عيسى بن المنيرة، قال: تذاكرنا عند إبراهيم إسلام كعب، فقال: أسلم كعب زمان عمر، أقبل وهو يريد بيت المقدس، فمر على المدينة فخرج إليه عمر، فقال: يا كعب أسلم فقال: أستم تقولون في كتابكم: ﴿مثل الذين حملوا التوراة﴾ إلى: ﴿أسفار﴾، وأنا قد حملت التوراة، قال: فتركه عمر، ثم خرج حتى انتهى إلى حمص فسمع رجلاً من أهلها حزناً، وهو يقول: ﴿يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن تطمس وجوهاً فتردها على أديارهم﴾ الآية. قال كعب: يا رب أسلمت مخافة أن تصيبه هذه الآية، ثم رجع فأتى أهله في اليمن، ثم جاء بهم مسلمين.

وقوله تعالى: ﴿أو نعلمتهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ يعني: الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد وقد مسخوا قردة وختازير، وقوله: ﴿وكان أمر الله مقملاً﴾ أي: إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ولا يمانع. ثم أخبر تعالى أنه لا يغير أن يشرك به أي لا يغير لميد لقيه وهو مشرك به ﴿ويغير ما دون ذلك﴾ أي من الذنوب، ﴿لمن يشاء﴾: أي من عباده، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة فلتذكر منها ما تيسر:

(الحديث الأول): عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «الظلم ثلاثة، فظلم لا يغيره الله، وظلم يغيره الله، وظلم لا يترك الله منه شيئاً فأما الظلم الذي لا يغيره الله فالشرك، وقال: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾، وأما الظلم الذي يغيره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه ظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين لبعضهم من بعض»^(١).

(الحديث الثاني): عن أبي إدريس قال: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغيره إلا الرجل يموت كافرأ أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً».

(الحديث الثالث): عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: «على رغم أنف أبي ذر»، قال فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر، وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد ويقول: وإن رغم أنف أبي ذر. وعن أبي ذر قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة المدينة عشاء ونحن ننظر إلى أحد، فقال: «يا أبا ذر!» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «ما أحب أن لي أحداً ذاك عندي ذهباً أمسي ثلثة وعندي منه دينار إلا ديناراً أرصده، يعني لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا» فحشا عن يمينه وعن يساره وبين يديه، قال ثم مشينا فقال: «يا أبا ذر إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا»، فحشا عن يمينه ومن بين يديه وعن يساره، قال: ثم مشينا فقال: «يا أبا ذر كما أنت حتى آتيك»، قال: فانطلق حتى توارى عني، قال: فسمعت لفظاً، فقلت: لعل رسول الله ﷺ عرض له، قال: فهمت أن أتبعه، قال: فذكرت قوله لا تبرح حتى آتيك، فانتظرت حتى جاء، فذكرت له الذي سمعت، فقال: «ذاك جبريل أتاني، فقال: من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق»^(٢).

(الحديث الرابع): عن جابر، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ما الموجبتان؟

(١) رواه الشيخان.

(٢) رواه أحمد والشيخان.

قال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً وجبت له الجنة ومن مات يشرك بالله شيئاً وجبت له النار».

(الحديث الخامس): قال الإمام أحمد، عن ضمضم بن جوش اليمامي قال: قال لي أبو هريرة: يا يمامي! لا تقولن لرجل لا يَغْفِرُ اللهُ لك، أو لا يدخلك الجنة أبداً، فقلت: يا أبا هريرة إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب، قال: لا تقلها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان في بني إسرائيل رجلان أحدهما مجتهد في العبادة، وكان الآخر مسرفاً على نفسه، وكانا متآخيين، وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على الذنب فيقول: يا هذا أقصر، فيقول: خلّني وربّي أبعث عليّ رقيباً؟ إلى أن رآه يوماً على ذنب استعظمه، فقال له: ويحك أقصر، قال: خلّني وربّي، أبعث عليّ رقيباً؟ فقال: والله لا يَغْفِرُ اللهُ لك أو لا يدخلك الجنة أبداً، قال: فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما واجتمعا عنده، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أكنت عالماً، أكنت على ما في يدي قادراً؟ اذهبوا به إلى النار. قال: والذي نفس أبي القاسم بيده إنه لتكلم بكلمة أُوتِيتُ دنياه وآخرته».

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكُونَ مِنِّي مَنْ يَكْفُرُ وَلَا يُظَلِّمُونَ فِتْنًا ۖ ﴿٤٩﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْضُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْدَ ۖ وَكَانَ بِهِ إِفْكًا مَبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نِسَابًا مِنَ الْكُفْرِ وَاللَّعْنَةِ وَأُظْلِمُوا ۖ وَكَفَرُوا هُنَاكَ ۖ أَقْدَىٰ مِنَ الْأَلْوَانِ مَا أَسْوَأَ سَيِّئًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَهُوَ لَعْنَةٌ قَبِيْرًا ﴿٥٢﴾﴾

قال الحسن وقتادة نزلت هذه الآية - وهي قوله: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ - في اليهود والنصارى حين قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وفي قولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمنونهم ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم، وقال ابن عباس في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ وذلك أن اليهود قالوا: إن أبناءنا توفوا وهم لنا قرابة ويشفعون لنا ويزكوننا، فأنزل الله على محمد: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ الآية. وقال الضحّاك: قالوا ليس لنا ذنوب كما ليس لأبنائنا ذنوب، فأنزل الله: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ فيهم، وقيل: نزلت في ذم التمدّاح والتركيب، وفي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المدّاحين التراب، وفي الصحيحين عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل فقال: «ويحك قطعت عتق صاحبك» ثم قال: «إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل أحسبه كذا ولا يزكي على الله أحداً»، وروى ابن مردويه عن عمر أنه قال: إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه، فمن قال إنه مؤمن فهو كافر، ومن قال هو عالم فهو جاهل، ومن قال هو في الجنة فهو في النار. وقال الإمام أحمد عن معبد الجهني قال: كان معاوية قلماً كان يحدث عن النبي ﷺ، قال: وكان قلماً يكاد يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبي ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإن هذا المال حلوق خضر، فمن يأخذه بحقه يبارك فيه، وإياكم والتمدّاح فإنه الذبح». وقال ابن جرير قال عبد الله بن مسعود: إن الرجل ليغدو بدينه ثم يرجع وما معه منه شيء يلقى الرجل ليس يملك له ضرراً ولا نفعاً فيقول له: إنك والله كيت وكيت، فلعله أن يرجع ولم يحظ من حاجته بشيء وقد أسخط الله، ثم قرأ: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ الآية ولهذا قال تعالى: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله عز وجل لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها، ثم قال تعالى: ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ أي ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتل، قال ابن عباس: هو ما يكون في شق النواة.

وقوله تعالى: ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ أي في تزكيتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، وقولهم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾، واتكالمهم على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله: ﴿تلك أمة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ الآية، ثم قال: ﴿وكفى به إثمًا مبينًا﴾ أي وكفى

بصنيعهم هذا كذباً وافتراءً ظاهراً. وقوله: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجحبت والطاغوت﴾، أما الجبت فقال عمر بن الخطاب: (الجبت) السحر؛ و(الطاغوت) الشيطان، وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد، وعن ابن عباس وأبي العالية: (الجبت) الشيطان، وعنه: الجبت الأصنام. وعن مجاهد: الجبت كعب بن الأشرف. وقال الجوهري في كتابه الصحاح: الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك، وفي الحديث: «الطير والعيافة والطرق من الجبت». وقد تقدم الكلام على الطاغوت في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم، وقلة دينهم، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم، وقد روى ابن أبي حاتم عن عكرمة، قال: جاء حبي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا، وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، ونسقي الكرماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العاني، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبر قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً﴾ الآية. وقال الإمام أحمد عن ابن عباس: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى هذا الصنبر المنبر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة، وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير، قال: فنزلت: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾، ونزل: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ إلى قوله عز وجل ﴿وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾، وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة المخندق فكفى الله شرهم، ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾.

﴿ألم تر كيف زين الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿ألم تر كيف زين الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿ألم تر كيف زين الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى: ﴿ألم تر كيف زين الملك﴾ وهذا استفهام إنكاري أي ليس لهم نصيب من الملك، ثم وصفهم بالبخل فقال: ﴿فإذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ أي لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس ولا سيما محمداً ﷺ شيئاً، ولا ما يملأ النقيير وهو النقطة التي في النواة في قول ابن عباس والأكثرين، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق﴾ أي خوف أن يذهب ما بأيديكم، مع أنه لا يتصور نفاذه، وإنما هو من بخلكم وشحكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وكان الإنسان تقوراً﴾ أي بخيلاً. ثم قال: ﴿ألم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل، ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ أي فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب، وحكموا فيهم بالسنن وهي الحكمة وجعلنا منهم الملوك، ومع هذا ﴿فمنهم من آمن به﴾ أي بهذا الإتياء وهذا الإنعام ﴿ومنهم من صد عنه﴾ أي كفر به وأعرض عنه وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم أي من بني إسرائيل فقد اختلفوا عليهم فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل؟ وقال مجاهد: ﴿فمنهم من آمن به﴾ أي بمحمد ﷺ ﴿ومنهم من صد عنه﴾ فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك، وأبعد عما جتتهم به من الهدى والحق المبين؛ ولهذا قال متوعداً لهم: ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾ أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسوله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصِيبُهُمْ قَارًا مِمَّا نَبِئَتُ جُلُودَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا يَبْتَاطُونَ الْقَدَابَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَزِيمًا جَزِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَوَجَّهْنَاهُمْ يَلَىٰ ظِلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية، أي ندخلهم ناراً دخولاً يحيط بجميع أجزائهم وأجزاءهم، ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم فقال: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَانِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا يَلْبُوتُوا الْعَذَابَ﴾. قال الأعمش عن ابن عمر: إذا احترقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها أيضاً أمثال القراطيس، وعن الحسن قوله: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ الآية قال: تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة، ثم قيل لهم: عودوا فعادوا، عن ابن عمر قال: قرأ رجل عند عمر هذه الآية: ﴿كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَانِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ فقال عمر: أعدها عليّ، فأعادها، فقال معاذ بن جبل: عتدي تفسيرها، تبدل في ساعة مائة مرة، فقال عمر: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول. وقال الربيع بن أنس: مكتوب في الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعاً، وسنه سبعون ذراعاً، ويطنه لو وضع فيه جبل لوسعه، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها. وقد ورد في الحديث ما هو أبلغ من هذا، قال الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعمون ذراعاً، وإن ضربه مثل أحد».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا، وهم خالدون فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ولا ييغفون عنها حولاً. وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي من الحيض، والنفاس، والأذى، والأخلاق الرذيلة، والصفات الناقصة كما قال ابن عباس: مطهرة من الأذى والأذى. وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض والنخام واليزراق والمنى والولد، وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمعائم، ولا حيض ولا كلف. وقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلَالًا ظَلِيلًا﴾ أي ظلاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، شجرة الخلد».

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ نِعِيمًا نَشِيمًا ﴿٥٨﴾﴾

يخبر الله تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي الحديث: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانتك»^(١) وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك مما يئتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤذن الحقوق إلى أهلها حتى يقتصر للشاة الجماء من القرناء»، وقال ابن حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة، يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قد قتل في سبيل الله فيقال: «أد أمانتك»، فيقول: فأتى أوديها وقد ذهب الدنيا؟ فتمثل له الأمانة في قعر جهنم فيهوي إليها فيحملها على عاتقه فتنزل عن عاتقه فيهوي على أثرها أبد الأبدين^(٢). قال أبو العالية: الأمانة ما أمروا به

(١) رواه ابن جرير وأخرجه الشيخان بنحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً.

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن.

ونفوا عنه . وروى ابن أبي حاتم عن مسروق قال : قال (أبي بن كعب) : من الأمانات أن المرأة ائتمنت على فرجها ، وقال الربيع بن أنس : هي من الأمانات فيما بينك وبين الناس . وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن (عثمان بن طلحة) حاجب الكعبة المعظمة ، وهو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبي طلحة الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم ، أسلم عثمان هذا في الهندة بين صلح الحديبية وفتح مكة هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص . وسبب نزولها فيه لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه ، وقال محمد بن إسحاق : إن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة والطمأن الناس خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده ، فلما قضى طوافه دعا (عثمان بن طلحة) فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها ، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرهما بيده ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكن له الناس في المسجد فقال : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سداة البيت وسقاية الحاج» وذكر بقية الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذ إلى أن قال : ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ، فقام إليه (علي بن أبي طالب) ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : «أين عثمان بن طلحة؟» فدعي له ، فقال له : «هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم وفاء وبر» . قال ابن جرير : نزلت في عثمان بن طلحة ، قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل في البيت يوم الفتح ، فخرج وهو يتلو هذه الآية ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ الآية ، فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح ، وقال عمر بن الخطاب لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وهو يتلو هذه الآية ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ فداه أبي وأمي ما سمعته يتلوها قبل ذلك .

وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك ، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا فحكمها عام . ولهذا قال ابن عباس ومحمد ابن الحنفية : هي للبر والفاجر ، أي هي أمر لكل أحد ، وقوله ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ، ولهذا قال زيد بن أسلم : إن هذه الآية إنما نزلت في الأمراء يعني الحكام بين الناس ، وفي الحديث : «إن الله مع الحاكم ما لم يجر ، فإذا جار وكله إلى نفسه» ، وفي الأثر : «عدل يوم كعبادة أربعين سنة» . وقوله ﴿إن الله نعماً يعظكم به﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة . وقوله تعالى : ﴿إن الله كان سمياً بصيراً﴾ سمياً لأقوالكم ، بصيراً بأفعالكم .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ .

قال البخاري عن ابن عباس : ﴿اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ ، قال : نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية ، وقال الإمام أحمد عن علي قال : بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار ، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء قال : فقال لهم : ليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا : بلى ، قال : فاجمعوا لي حطباً ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها ، قال : فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار ، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها ، قال : فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال لهم : «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً ، إنما الطاعة في المعروف» . وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره» ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة^(١) . وعن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، في

مشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان» (١). وفي الحديث الآخر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا وإن أمَرَ عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة» رواه البخاري، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدوع الأطراف». رواه مسلم. وروى ابن جرير عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «سليكم ولاية بعدي فيليكم البر بیره، والفاجر بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق، رسلوا وراءهم، فإن أحسنوا فلكم ولهم، وإن أساءوا فلكم وعليهم».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون». قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم» أخرجاه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فموت إلا مات ميتة جاهلية» أخرجاه، وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» رواه مسلم. وروى مسلم أيضاً عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس حوله مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلست إليه فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً فمنا من يصلح خبائه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جشره (٢) إذ نادى منادي رسول الله ﷺ الصلاة جامعة! فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي من قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن هذه الأمة جعلت عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء، وأمور يتكرونها، وتجيء فتن يترقق بعضها بعضاً، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعمه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»، قال فدنوت منه فقلت: أنشدك بالله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيده وقال: سمعته أذناي، ووعاه قلبي، فقلت له: هذا ابن عمك معاوية بأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، ويقتل بعضاً بعضاً، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ قال فسكت ساعة ثم قال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله، والأحاديث في هذا كثيرة.

وقال ابن عباس: «وأولي الأمر منكم» يعني أهل الفقه والدين، وكذا قال مجاهد وعطاء «وأولي الأمر منكم» يعني العلماء. والظاهر - والله أعلم - أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء كما تقدم، وقال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُم الرِّبَايُونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمِ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمِ السَّحْتِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وفي الحديث الصحيح المتفق على صحته عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعني ومن عصا أميرى فقد عصاني»، فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي اتبعوا كتابه، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي خذوا بسنته، ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله كما تقدم في الحديث الصحيح: «إنما الطاعة في المعروف». وقال

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) أصل الجش: الدواب ترعى في مكان وتبيت فيه اهـ.

الإمام أحمد عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ ، قال : « لا طاعة في معصية الله » .
 وقوله : « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول » قال مجاهد : أي إلى كتاب الله وستة رسوله ، وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع فيه من أصول الدين وقروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » ، فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ولهذا قال تعالى : « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وستة رسوله ، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ، فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر ، وقوله : « ذلك خير » أي التحاكم إلى كتاب الله وستة رسوله ، والرجوع إليهما في فصل النزاع خير « وأحسن تأويلاً » ، أي وأحسن عاقبة ومآلاً كما قاله السدي وقال مجاهد : وأحسن جزاء ، وهو قريب .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَحَاكَمُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ الَّذِينَ الْمُتَّقِينَ تَعَسَّوْنَ عَلَيْكُمْ صُلُودًا ﴿١٦٧﴾ فَكَيْفَ إِذَا اسْتَجَبْتُمْ لَهُمْ مَعْصِيَةً يَسْتَأْذِنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَنْ يُطَافُوا بِأَعْنَاقِهِمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَأَرَادَنَّا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿١٦٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَأَمَّ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿١٦٩﴾ ﴾ .

هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين ، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وستة رسوله ، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار ، ورجل من اليهود تخصما ، فجعل اليهودي يقول : بيني وبينك محمد ، وذلك يقول بيني وبينك (كعب بن الأشرف) وقيل : في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام ، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية ، وقيل غير ذلك ، والآية أعم من ذلك كله ، فإنها دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة ، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا ، ولهذا قال : « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت » إلى آخرها ، وقوله : « يصلون عنك صلوداً » أي يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين عن ذلك كما قال تعالى عن المشركين : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » .

ثم قال تعالى في ذم المنافقين : « فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم » أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرفهم بسبب ذنوبهم ، واحتاجوا إليك في ذلك ؟ « ثم جاؤك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً » أي يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك وتحاكمتنا إلى أعدائك إلا الإحسان والتوفيق ، أي العداوة والمصانعة لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة ، كما في قوله تعالى : « فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم » ، عن ابن عباس قال : كان (أبو برزة الأسلمي) كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه ، فتنافر إليه ناس من المشركين فأنزل الله عز وجل « ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » إلى قوله : « إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً » (١) .

ثم قال تعالى : « أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم » هذا الضرب من الناس هم المنافقون والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزئهم على ذلك ، فإنه لا تخفى عليه خافية ، فاكتف به يا محمد فيهم فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم ، ولهذا قال له : « فأعرض عنهم » أي لا تمنهم على ما في قلوبهم ، « وعظمهم » أي واتهم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ، « وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام

بليغ رادع لهم.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِنُكَحِّبَ إِلَيْكَ اللَّهُ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع ﴾ أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم، وقوله: ﴿ ياذن الله ﴾ قال مجاهد: أي لا يطيعه أحد إلا بإذني يعني لا يطيعه إلا من وفقته لذلك، كقوله: ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم ياذن ﴾ أي عن أمره وقدره ومشيئته وتسليطه إليكم عليهم. وقوله: ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ﴾ الآية، يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿ لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه «الشامل» الحكاية المشهورة عن النبي قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾، وقد جئتك مستغفراً لذني مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالفقاع أعظمه قطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبير أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي، فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: «يا عتي الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له».

وقوله تعالى: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾، يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة، أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الاتقياء له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ أي إذا حكموك بطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، ويتقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً، من غير ممانعة ولا مداقة ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، وقال البخاري عن عروة، قال: خاصم الزبير رجلاً في شراج الحرة، فقال النبي ﷺ «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك» فقال الأنصاري: يا رسول الله أن كان ابن عمك؟ فتلوه وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر ثم أرسل الماء إلى جارك» فاستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة، قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ الآية. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: خاصم الزبير رجلاً إلى النبي ﷺ ففضى للزبير، فقال الرجل: إنما قضى له لأنه ابن عمته، فنزلت: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ﴾ الآية.

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ احْرُسُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ حَرَجًا مِمَّنْ وَاسْتَدْرَجَتْكُمُ الْوَيْلُ لَا يُؤْمِنُ مِنْ أَدْمَانَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يَطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَأُوَلِّكْهُ مَعَ الَّذِينَ يَسَّرُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالْقَائِلِينَ وَحَسْبُ أَوْلِيَاكُمْ ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه، لأن طابعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن أو كان فكيف كان يكون، ولهذا قال

تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم﴾ الآية، قال ابن جرير: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم﴾ الآية، قال رجل: لو أمرنا ل فعلنا والحمد لله الذي عافانا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إن من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي»، وقال السدي: افتخر (ثابت بن قيس) بن شماس ورجل من اليهود، فقال اليهودي: والله لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا، فقال ثابت: والله لو كتب علينا ﴿أن اقتلوا أنفسكم﴾ ل فعلنا، فأنزل الله هذه الآية. قال تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ أي: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه، ﴿لكان خيراً لهم﴾ أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي ﴿وأشدّ ثبثاً﴾ قال السدي: أي وأشدّ تصديقاً، ﴿وإذا لايتناههم من لنا﴾ أي من عندنا ﴿أجرأ عظيماً﴾ يعني الجنة، ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ أي في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ أي من عمل بما أمره الله به ورسوله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم، ثم أتى عليهم تعالى، فقال: ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾. وقال البخاري عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة»، وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحدة شديدة، فسمعتة يقول: ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ فعلمت أنه خير. وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر: «اللهم الرفيق الأعلى» ثلاثاً ثم قضى، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

(ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة)

روى ابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان ما لي أراك محزوناً؟» فقال: يا نبي الله شيء فكرت فيه، فقال: «ما هو؟» قال: نحن نغدو ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين، فلا نصل إليك، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً، فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ الآية، فبعث النبي ﷺ فبشره. وعن عائشة، قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنك لأحب إلي من نفسي، وأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾.

وثبت في صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيت بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سل». فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذلك، قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود». وقال الإمام أحمد عن عمرو بن مرة الجهني، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله؛ وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت شهر رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا». ونصب أصبعيه - ما لم يعنى والدهيه - فترده أحمد. وروى الترمذي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء». وقد ثبت في الصحيح والمسند وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ مثل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: «المرء مع من أحب». قال أنس: فعا فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث، وفي رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب رسول الله ﷺ وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وأرجو أن الله

البخاري عن عبيد الله، قال: سمعت ابن عباس قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين. ثم قال تعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾.

﴿لَا تَرَى إِلَى الدِّينِ إِلَّاءَ قِتْمَ كُفْرٍ أَيْدِيكُمْ وَأَيْمُونُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظَلَمُونَ قِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُوحٍ مُنْتَشِرِينَ وَلَنْ نُجِيبَنَّ عَنْهُمْ سَبْقَةً بِقَوْلِهِمْ هَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا يَفْقَهُونَ حَرْفِيهَا ﴿٧٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَعَلْنَا لَكُمْ فِي الدِّينِ حَرَجًا وَاللَّهُ يَسِّرُ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ فِي الدِّينِ عُسْرًا وَإِنَّهَآ لَشَايِئًا وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٧٩﴾﴾.

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والعصير إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة: منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأمنار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه، جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ أي لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى فإن فيه سفك الدماء، ويتم الأولاد، وتأييم النساء، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال﴾ الآيات. عن عكرمة عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمننا صرنا أذلة قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم» فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله: ﴿الم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ الآية. وقال السدي: لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال، فلما فرض عليهم القتال ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ وهو الموت، قال الله تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾ أي آخرة المتقي خير من دنياه ﴿ولا تظلمون فتية﴾ أي من أعمالكم، بل توفونها أتم الجزاء، وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد، وقال ابن أبي حاتم عن هشام قال: قرأ الحسن ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ قال: رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب، ثم اتته. وقال ابن معين: كان أبو مصهر ينشد:

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له من الله في دار المقام نصيب
فإن شُعب الدنيا رجالاً فإنها متاع قليل والزوال قريب

وقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ أي أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ولا ينجو منه أحد منكم كما قال تعالى: ﴿كل من عليها فان﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾، وقال تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾، والمقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء سواء جاهد أو لم يجاهد فإن له أجلاً محتوماً، ومقاماً مقسوماً، كما قال (خالد بن الوليد) حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وما أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء. وقوله: ﴿ولو كنتم في

بروج مشيلة» أي حصينة منيعة عالية رفيعة، أي لا يخني حذر وتحصن من الموت كما قال زهير بن أبي سلمى:

ومن هاب أسباب المتأيا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسُلْم
ثم قيل: المشيدة هي المشيدة كما قال «وقصر مشيد»، وقيل: بل بينهما فرق وهو أن المشيدة بالتشديد هي المطولة، وبالتخفيف هي المزينة بالشيد وهو الجص.

وقوله تعالى: «وإن تصبهم حسنة» أي خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك، هذا معنى قول ابن عباس وأبي العالية والسدي «يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة» أي تحط وجذب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك «يقولوا هذه من عندك» أي من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك، كما قال تعالى عن قوم فرعون: «فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يعطون» بموسى ومن معه «وكما قال تعالى: «ومن الناس من يعبد الله على حرف» الآية. وهكذا قال هؤلاء المنافقون، الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر، ولهذا إذا أصابهم شر إنما يستدرونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ وقال السدي «وإن تصبهم حسنة» قال: والحسنة: الخصب تتج مواشيم وخيولهم ويحسن حالهم وتلد نساؤهم الغلمان، قالوا: «هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة» والسيئة: الجذب والضرر في أموالهم تشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا: «هذه من عندك» يقولون بتركنا ديننا واتباعنا محضاً أصابنا هذا البلاء، فأنزل الله عز وجل: «قل كل من عند الله» فقوله: قل كل من عند الله أي الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البر والفاجر والمؤمن والكافر، قال ابن عباس: «قل كل من عند الله» أي الحسنة والسيئة وكذا قال الحسن البصري. ثم قال تعالى متكرراً على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب وقلة فهم وعلم وكثرة جهل وظلم: «لما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً»؟

ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب: «وما أصابك من حسنة فمن الله» أي من فضل الله ومثته ولطفه ورحمته، «وما أصابك من سيئة فمن نفسك» أي فمن قبلك، ومن عملك أنت، كما قال تعالى: «وما أصابكم من مصيبة فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ويعرفون كثير». قال السدي: «فمن نفسك» أي بذنبك، وقال قتادة في الآية: «فمن نفسك» عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك، قال: وذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «لا يصيب رجلاً خدش عود ولا عشرة قدم ولا اختلاج عرق إلا يذنب وما يعفو الله أكثره، وهذا الذي أرسله قتادة قد روي متصلاً في الصحيح: «والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها»، وقال أبو صالح «وما أصابك من سيئة فمن نفسك» أي بذنبك وأنا الذي قدرتها عليك رواه عن ابن جرير. وقوله تعالى: «وأرسلناك للناس رسولا» أي تبلغهم شرائع الله وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه «وكفى بالله شهيداً» أي على أنه أرسلك وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم، وعالم بما تبلغهم إياه وما يردون عليك من الحق كفراً وعتاداً.

﴿مَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ اطَّاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ خَلِيفَةً ۗ وَتَوَلَّىٰ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَلَّىٰ عَلَىٰ أَقْوَامٍ يَاهُو كَيْدًا﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه «ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى». قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله؛ ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني». وقوله: «ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً» أي ما عليك منه، إن عليك

إلا البلاغ فمن اتبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر، وليس عليك من أمره شيء كما جاء في الحديث: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه».

وقوله تعالى: «ويقولون طاعة» يخبر تعالى عن المناقبين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة «فإذا برزوا من هنتك» أي خرجوا وتواروا عنك «بيت طائفة منهم غير الذي تقول» أي استسروا ليلاً فيما بينهم غير ما أظهروه لك، فقال تعالى: «والله يكتب ما يبيتون» أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظه الكائنين الذين هم موكلون بالعباد، والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضررونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزيهم على ذلك، كما قال تعالى: «ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا» الآية، وقوله: «فأعرض عنهم» أي اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تواخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم أيضاً، «وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً» أي كفى به ولياً وناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأتاب إليه.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (١٧١) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ مِنَ الْقُرْبِ أَحْذَرُوا بِهِ. وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى الْأُمْرِ بِكُمْ لَعَلَّكُمْ الَّذِينَ يَتَأْتُونَكُم بِبُحْتٍ وَإِنَّمَا فَتْنُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَزَكَاةٌ لَكُمْ لَتَنْبَعَثَنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا لِيْلًا﴾ (١٧٢).

يقول تعالى أمراً لهم بتدبر القرآن ونهاياً لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة واللفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تعارض لأنه تنزيل من حكيم حميد فهو حق من حق، ولهذا قال تعالى: «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها»، ثم قال: «ولو كان من عند غير الله» أي لو كان مفتعلاً مختلفاً، كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمناققين في بواطنهم «لوجدوا فيه اختلافاً»، أي اضطراباً وتضاداً «كثيراً»، أي وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله، كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا: «آمنا به كل من عند ربنا» أي محكمه ومتشابهه حق، فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغفوا، ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين. قال الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر فكأنما يفتأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض، بهذا هلك من كان قبلكم»، وعن عبد الله بن عمرو قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، فإنا لجلوس إذ اختلف اثنان في آية فارتفعت أصواتهما فقال: «إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم في الكتاب» (١٧٢).

وقوله تعالى: «وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاهوا به» إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة، وقد قال مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» وفي الصحيح: «من حدث بخديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين». ولندكر ههنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك قلم يصير حتى استأذن على النبي ﷺ فاستفهمه: «أطلقت نساءك؟ فقال: «لا» فقلت: «الله أكبر وذكر الحديث بطوله. وعند مسلم فقلت: «أطلقتهن؟ فقال: «لا»، فقمت على باب المسجد فنأديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية: «وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاهوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي

الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم»، فكانت أنا استنبطت ذلك الأمر. ومعنى يستنبطونه أي يستخرجونه من معانده، يقال: استنبط الرجل العين إذا حفرها واستخرجها من قموورها، وقوله: ﴿لَاتَّبِعُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال ابن عباس: يعني المؤمنين، وقال قتادة ﴿لَاتَّبِعُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: كلكم. واستشهد من نصر هذا القول بقول الطرماح في مدح يزيد بن المهلب:

أشم، ندي، كشير النوادي قليل المشالب والقادحة
يعني لا مثالب له ولا قادحة فيه.

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضْ لِكُلِّ مَنٍّ أَنِ يَكْفُفَ بِأَسْمِ اللَّهِ كَفْرًا وَأَنَّهُ أَشَدُّ بِأَسْمِ اللَّهِ وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (٨١) ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهَا نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سيِّئَةً يَكُنْ لَهَا كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا﴾ (٨٢) ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِهَا أَوْ بِأَدْوَاهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (٨٣) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِيكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُبْقِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَافِقٌ وَلَا يُؤْمِنُ بِهِمْ وَلَا يَشَفَعُ عَنكُمْ إِلَّا مَنَافِقٌ مِّنْ أُمَّةٍ﴾ (٨٤).

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عنه فلا عليه منه، ولهذا قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾. عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى يده إلى التهلكة؟ قال: لا، إن الله بعث برسوله ﷺ وقال: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ إنما ذلك في الشفاعة (٨١).

وقوله: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي على القتال ورغبهم فيه وشجعهم عليه، كما قال لهم ﷺ يوم بدر وهو يسري الصفوف: ﴿قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض﴾ وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك، فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها﴾. قالوا: يا رسول الله أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: ﴿إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيل الله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض؛ فإذا سألتهم فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة؛ وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفرج أنهار الجنة﴾.

وقوله تعالى: ﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تبعت همهم على مناجزة الأعداء، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسْمًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أي هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضهم ببعض﴾ الآية، وقوله: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ أي من يسعى في أمر فيرتب عليه خير كان له نصيب من ذلك، ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ أي يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿اشفعوا تؤجروا؛ ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء﴾ وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض. وقوله: ﴿وكان الله على كل شيء مقبلاً﴾ قال ابن عباس: أي حفيظاً، وقال مجاهد: شهيداً، وفي رواية عنه حسيباً. وقال الضحاك: المقيت الرزاق. وعن عبد الله بن رواحة، وسأله رجل عن قول الله تعالى: ﴿وكان الله على كل شيء مقبلاً﴾ قال: مقيت لكل إنسان بقدر عمله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِهَا أَوْ بِأَدْوَاهَا﴾ أي إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم؛ فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة. قال ابن جرير عن سلمان الفارسي، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال: «وعليك السلام ورحمة

الله ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله؛ فقال له رسول الله ﷺ: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال له: «وعليك» فقال له الرجل: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، أتاك فلان وقلان فلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت علي؟ فقال: «إنك لم تدع لنا شيئاً، قال الله تعالى ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِهَا أَوْ رَدُّوهَا﴾ فرددناها عليك».

وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ، وقال الإمام أحمد عن عمران بن حصين أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليكم يا رسول الله فرد عليه ثم جلس فقال: «عشر» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله فرد عليه ثم جلس فقال «عشرون» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليه، ثم جلس فقال: «ثلاثون». وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: من سلم عليك من خلق الله فاردده عليه وإن كان مجوسياً؛ ذلك بأن الله يقول: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مَا أُورِدُوا﴾ وقال فأما أهل الذمة فلا يُبدؤون بالسلام ولا يزدون بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم السام عليكم فقل وعليك». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبادروا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقتهم»، وقال الحسن البصري: السلام تطوع والرد فريضة، وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة أن الرد واجب على من سلم عليه فيأثم إن لم يفعل، لأنه خالف أمر الله في قوله: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مَا أُورِدُوا﴾ وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات. وتضمن قسماً لقروله: «ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا رب فيه» وهذه اللام موطنة للقسام فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله. وقوله تعالى: ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيده، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿مَا لَكُمْ فِي التَّحْيِيَةِ فِتْنَيْنِ وَأَنْتُمْ آتَيْتُمُوهُنَّ بِمَا كُنتُمْ بِنَاءِ كُفْرِكُمْ أَنْ تَقُولُوا لَنْ نَكْفُرَ وَإِن تَنَزَّلَتْ عَلَيْنَا نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ لَأَن نَحْمِلَهَا وَنَكْفُرُونَ كَمَا كُفَرْتُمْ سَوَاءٌ لَكُمْ فَتْنَتُنَّ سَوَاءٌ فَلَا تَحْجِدُوا مِنْهُمْ آيَةً حَتَّى يَخْرُجُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَجِدْهُمْ مَبغُوتِهِمْ حَيْثُ يَتَّبِعُوهُمْ وَلَا تَحْجِدُوا مِنْهُمْ آيَةً وَلَا نَسِيْرًا ﴿٩٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَبْلُغُونَ إِلَى قَوْمِ بَنِيكُمْ وَيَتَّبِعُهُمْ فَيَكْفُرُوا بِمَا كُفَرْتُمْ فَتَقَاتِلْهُمْ لِيُذْخِرُوا لِقَوْمِهِمْ إِن يَسْتَفِهُوا فَذُرُّوهُمْ وَلَا تُجَادِلْهُمْ فِي شَيْءٍ لَّيَسِّرَ اللَّهُ لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ سَبِيلَهُمْ وَلِيُكَلِّمَهُمُ اللَّهُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَسَلْطَنُهُ عَلَيْكُمْ فَتَقْتُلُوهُمْ وَإِن أَسْرَلْتُمْ لَهُمْ فَتَقْتُلُوهُمْ وَانْقَرُوا إِلَيْكُمْ أَلْتُمْ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لِكُفْرِكُمْ سَبِيلًا ﴿٩٩﴾ سَتَجِدُونَ مَعْرِبِينَ يُؤْتُونَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا يُؤْتِيهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَانقَلِبْوا عَلَيْهِمْ بِطَوْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ إِنَّهُمْ إِحْسَنُ الْبَالِغِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

يقول تعالى متكرراً على المؤمنين في اختلافهم في المناققين على قولين. واختلف في سبب ذلك، فقال الإمام أحمد عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين، فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، هم مؤمنون؛ فنزل الله: ﴿لَمَّا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة وإنما تنفي الخبث كما ينفي الكبر حيث الحديد»^(١). وقد

ذكر محمد بن إسحاق في رقعة أحد: أن عبد الله بن أبي بن سلول رجح يومئذ بثلك الجيش، رجح بثلمائة وبقي النبي ﷺ في سبعمائة. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي ردهم وأوقعهم في الخطأ، قال ابن عباس: ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ أي أوقعهم، وقال قتادة: أهلكتهم، وقال السدي: أضلهم، وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مِنْ أَضَلِّ اللَّهُ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه، وقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أي هم يودون لكم الضلالة لتستروا أنتم وإياهم فيها، وما ذلك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَخَلَّوْا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تركوا الهجرة قاله ابن عباس، وقال السدي: أظهروا كفرهم ﴿فَنَخِذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَخَلَّوْا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، أي لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك، ثم استثنى الله من هؤلاء فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي إلا الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم كحكمهم، وهذا قول السدي وابن جرير.

وقد روى ابن أبي حاتم عن الحسن أن (سراقة بن مالك المدلجي) قال: لما ظهر النبي ﷺ على أهل بدر وأحد وأسلم من حولهم، قال سراقة: بلغني أنه يريد أن يبعث (خالد بن الوليد) إلى قومي بني مدلج فأتيته، فقلت: أنشدك النعمة، فقالوا صه، فقال النبي ﷺ: «دعوه، ما تريد؟»، قال: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا لم تخش قلوب قومك عليهم، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال: «أذهب معي فاقبل ما يريد»، فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم، فأنزل الله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَخَلَّوْا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾. وقد روي عن ابن عباس أنه قال نسخها قوله: ﴿فَإِذَا اتَّسَخَ الْأَشْهُرُ الْعُزْمُ فَاقتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ الآية. وقوله: ﴿أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصْرَتِ صُدُورُهُمْ﴾ هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حصرة صدورهم أي ضيقة صدورهم، مبغضين أن يقاتلوكم، ولا يهرون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ فَفَقَاتَلُوكُمْ﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فَإِنْ اهْتَضَلُوكُمْ فَلَمْ يقاتلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ﴾ أي المسالمة ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره.

وقوله تعالى: ﴿مُتَّجِدُونَ آخِرِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يُآمِنُوكُمْ وَيَأْمِنُوا قَوْمَهُمْ﴾ الآية، هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء قوم منافقون، يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليؤمنوا بذلك عندهم على دعائهم وأموالهم وذرايعهم، ويصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليؤمنوا بذلك عندهم وهم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شياطينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ الآية، وقال مهنا: ﴿كَلِمًا رُفِعُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أَرْكَسُوا فِيهَا﴾ أي انهكموا فيها، وقال السدي: الفتنة مهنا الشرك، وحكى ابن جرير عن مجاهد: أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يتفنون بذلك أن يأمنوا مهنا وههنا، فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَمْتَزِلْوكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ﴾ المهادنة والصلح ﴿وَيُكْفُوا أَيديَهُمْ﴾ أي عن القتال ﴿فَنَخِذُوهُمْ﴾ أسراء ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقَفْتُمُوهُمْ﴾ أي أين لقيتموهم ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مَبِينًا﴾ أي بيناً واضحاً.

﴿وَمَا كَانَتْ لِأُولَئِكَ أَنْ يَشْتَرُوا بِأَنفُسِهِمْ صُلْحًا وَإِنْ لَقُوا بِرِجَالِكُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَافِقُونَ﴾

أَهْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَشْكُرُوا فَإِنَّ كَلِمَاتٍ مِنْ قَوْمِ عَدُوِّكُمْ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ
يَبْتَغِيكُمْ وَيَبْتَغِيكُمْ يَبْتَغِي قَدِيحَةً مُكَلَّمَةً إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ وَتَحْمِيلُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَبِيحًا شَهْرِيًّا
مُتَكَافِئِينَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩١﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَقَدْ حَزَنَّا جَهَنَّمَ حَوْلًا
فِيهَا وَعَطَبَ اللَّهُ عَذَابًا وَعَلَّمَ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٢﴾

يقول تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والشيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»، ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه، وقوله: ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ قالوا: هو استثناء منقطع كقول الشاعر:

من البيض لم تظعن بعيداً ولم تنطأ عسى الأرض إلا ريط برده مرحل

واختلف في سبب نزول هذه، فقال مجاهد: نزلت في (عياض بن أبي ربيعة) وذلك أنه قتل رجلاً كان يعذبه مع أخيه على الإسلام، وهو (الحارث بن يزيد الغامدي) فأسلم ذلك الرجل وهاجر، وعياض لا يشعر، فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله فأنزله الله هذه الآية. قال ابن أسلم: نزلت في أبي الدرداء لأنه قتل رجلاً وقد قال كلمة الإيمان حين رفع عليه السيف فأهوى به إليه، فقال كلمته، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ، قال: إنما قالها متعوذاً، فقال له: «هل شقت عن قلبه؟» وهذه القصة في الصحيح لغير أبي الدرداء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾، هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما: الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم وإن كان خطأ، ومن شروطها أن تكون عتق ﴿رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ فلا تجزئ الكافرة، وفي موطأ مالك ومسنند الشافعي وأحمد عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم: أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء، قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟»، قالت: في السماء، قال: «من أنا؟»، قالت: رسول الله ﷺ، قال: «أعتقتها فإنها مؤمنة». وقوله: ﴿رَقَبَةٍ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتل عوضاً لهم عما فاتهم من قتلهم، وهذه الدية إنما تجب أخماساً كما رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود، قال: «قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض، وعشرين بني مخاض ذكوراً، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذعة، وعشرين حقة» وإنما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله، قال الشافعي رحمه الله: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة، وهو أكثر من حديث الخاصة، وهذا الذي أشار إليه رحمه الله قد ثبت في غير ما حديث، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: «اقتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنيها غرة عبد أو أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها» وهذا يفترض أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً لشبهة العمد.

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر، قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صيأنا صيأنا، فجعل خالد يقتلهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فرفع يديه، وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»، وبعث علياً فودي قتلهم، وما أتلف من أموالهم حتى ميلحة الكلب. وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصْدُقُوا﴾ أي فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب، وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي إذا كان القاتل مؤمناً، ولكن أولياؤه من الكفار

أهل حرب فلا دية لهم وعلى القاتل تحرير رفة مؤمنة لا غير.

وقوله تعالى: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ الآية أي فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء، وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، وقيل: ثلثها كما هو مفصل في كتاب الأحكام، ويجب أيضاً على القاتل تحرير رفة مؤمنة، ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين﴾ أي لا إفطار بينهما، بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا؟ على قولين، وقوله: ﴿توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين، واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام، هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كما في كفارة الظهار؟ على قولين: أحدهما: نعم، كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار، وإنما لم يذكر هنا لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص، والقول الثاني: لا يعدل إلى الطعام لأنه لو كان واجباً لما أصر بيانه عن وقت الحاجة، ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ قد تقدم تفسيره غير مرة. ثم لما بين تعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد، فقال: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ الآية، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً﴾ الآية.

الآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»، وفي حديث آخر: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم»، وفي الحديث الآخر: «من أغان على قتل المسلم ولو يشطر كلمة جاء يوم القيامة لأكبهم الله في النار»، وفي الحديث الآخر: «من أغان على قتل المسلم ولو يشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله»، وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً، وقال البخاري عن المغيرة بن النعمان قال: سمعت ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾ هي آخر ما نزل وما نسخها شيء. وقال في هذه الآية: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ إلى آخرها قال: نزلت في أهل الشرك. وقال ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾ قال: إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام ثم قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ولا توبة له فذكرت ذلك لمجاهد فقال: إلا من ندم.

وروى سالم بن أبي الجعد قال: كنا عند ابن عباس بعدما كُفَّ بصره فأتاه رجل فناداه: يا عبد الله بن عباس ما ترى في رجل قتل مؤمناً متعمداً؟ فقال: جزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً، قال: أقرأت إن تاب وعمل صالحاً ثم اعتدى؟ قال ابن عباس: ثكلته أمه وأنى له التوبة والهدى؟ والذي نفسي بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: «ثكلته أمه قاتل مؤمن متعمداً، جاء يوم القيامة أخذه يمينه أو بشماله تشخب أوداجه من قبل عرش الرحمن، يلزم قاتله بشماله ويده الأخرى رأسه يقول: يا رب سل هذا فيم قتلني»، وإيم الذي نفس عبد الله بيده لقد أنزلت هذه الآية فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ وما نزل بعدها من برهان. وعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «يجيء المقتول متعلقاً بقاتله يوم القيامة أخذاً رأسه بيده الأخرى، فيقول: يا رب سل هذا فيم قتلني؟ قال: فيقول: قتلتك لتكون العزة لك،

فيقول: فإنها لي، قال: ويجيء آخر متعلقاً بقاتله، فيقول: رب سل هذا فيم قتلني؟ قال: فيقول: قتلته لتكون العزة لفلان قال: فإنها ليست له بو يائمه، قال: فيهوي في النار سبعين خريفاً^(١).

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن أبي إدريس، قال: سمعت معاوية رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً». والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلقها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأتاب، وخشع وخضع وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلامته. قال الله تعالى: «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر» إلى قوله: «إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً» الآية، وهذا خير لا يجوز نسخه وحمله على المشركين وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل، والله أعلم.

وقوله تعالى: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله» الآية، وهذا عام في جميع الذنوب من كفر وشرك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك، كل من تاب تاب الله عليه، قال الله تعالى: «إن الله لا يفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها، لتقوية الرجاء والله أعلم. وثبت في الصحيحين خير الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس، ثم سأل عالماً هل لي من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه، فهاجر إليه فمات في الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة كما ذكرناه غير مرة. وإذا كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأخرى، لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم، وبعث نبياً بالحنيفية السمحة، فأما الآية الكريمة وهي قوله تعالى: «ومن يقتل مؤمناً متعمداً» الآية، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاءه إن جازاه، وكذا كل وعيد على ذنب لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه على قول أصحاب الموازنة والإحباط، وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، والله أعلم بالصواب. ويتقدير دخول القاتل في النار، أما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به فليس بمخلد فيها أبداً، بل الخلود هو المكث الطويل، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: «أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مقل ذرة من إيمان»، وأما حديث معاوية: «كل ذنب عسى الله أن يفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» فمفسى للترجي، فإذا انتفى الترجي في هاتين صورتين لانتفى وقوع ذلك في أحدهما وهو القتل، لما ذكرنا من الأدلة.

وأما من مات كافراً فالنص أن الله لا يفر له البتة، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الأدميين وهي لا تسقط بالتوبة، ولكن لا بد من ردها إليهم ولا فرق بين المقتول والمسروق منه، والمفصوب منه والمقذوف وسائر حقوق الأدميين، فإن الإجماع متعقد على أنها لا تسقط بالتوبة، ولكنه لا بد من ردها إليهم في صحة التوبة فإن تعدد ذلك فلا بد من المطالبة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة، إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة أو يعوض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها ونحو ذلك والله أعلم.

ثم لقاتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة، فأما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه، قال الله تعالى: «ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً» الآية، ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا، أو يعفوا، أو يأخذوا دية مغلظة - أثلاثاً - ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة، كما هو مقرر في كتاب الأحكام.

(١) رواه أحمد والنسائي. ومنى (بو) أي ارجع يائمه.

واختلف الأئمة هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام على أحد القولين كما تقدم في كفارة الخطأ؟ على قولين، فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون: نعم يجب عليه، لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ فلأن تجب عليه في العمد أولى فطردوا هذا في كفارة اليمين الغموس، وقال أصحاب الإمام أحمد وآخرون: قتل العمد أعظم من أن يكفر فلا كفارة فيه وكذا اليمين الغموس، وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع قال: أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا: إن صاحباً لنا قد أوجب، قال: «فليعتق رقبة يفدي الله بكل عضو منها عضواً منه من النار».

﴿ كَاتِبًا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ صَرِمْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَاتُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ الْكَلِمَةَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَدُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعَتَدَ اللَّهُ مَغَابِرًا كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ نَّسَبِكُمْ إِنَّا كُنَّا بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٦١﴾ ۞

روى أحمد عن ابن عباس قال: مر رجل من بني سليم ينفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنماً له فسلم عليهم، فقالوا: لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمة النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إلى آخرها (١٦١). وقال البخاري عن عطاء عن ابن عباس ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ قال: قال ابن عباس: كان رجل في غنمة له فلحقه المسلمون فقال السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ قال ابن عباس: عرض الدنيا تلك الغنيمة وقرأ ابن عباس ﴿ السَّلَام ﴾، وقال الحافظ أبو بكر البزار عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فيها (المقداد بن الأسود) فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير لم يبرح فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأهوى إليه المقداد فقتله فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله؟ والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله: إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد فقال: «ادعوا لي المقداد، يا مقداد أقتلت رجلاً يقول لا إله إلا الله؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غداً؟» قال: فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ صَرِمْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَتُّوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَدُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعَتَدَ اللَّهُ مَغَابِرًا كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ نَّسَبِكُمْ إِنَّا كُنَّا بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۞ ﴾ فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتله، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل» (١٦١)، وقوله: ﴿ فَعَتَدَ اللَّهُ مَغَابِرًا كَثِيرَةً ﴾ أي خير مما رغبت فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي آتى إليكم السلام، وأظهر لكم الإيمان فتغافطتم عنه واتهمتموه بالمصانعة والتقية لتبتغوا عرض الحياة الدنيا فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا.

وقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ فَمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمْ ﴾ أي قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يسر إيمانه ويخفيه من قومه كما قال تعالى: ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية. عن سعيد بن جبيرة في قوله: ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ ﴾ تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعي بإيمانه، وهذا اختيار ابن جرير، وقال ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة قوله: ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ ﴾ لم تكونوا مؤمنين، ﴿ فَمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمْ ﴾ أي تاب عليكم فحلف أسامة لا يقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله يعد ذلك الرجل، وما لقي من رسول الله ﷺ فيه، وقوله: ﴿ فَتَبَتُّوا ﴾ تأكيد لما تقدم، وقوله: ﴿ إِنْ آتَىٰ اللَّهُ بِمَنْ تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴾ قال سعيد بن جبيرة: هذا تهديد ووعيد.

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم.

(٢) أخرجه الحافظ البزار من حديث ابن عباس.

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الْعِلْمِ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ قَدْ قَضَى اللَّهُ لِكُلِّهِمْ أَجْرًا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدْ لَهُمْ مِنْهُ وَبِعْدَ ذَلِكَ نَبَإٌ لِقَائِهِمْ وَرَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِزْقٌ كَثِيرٌ ۗ ﴾ (١١٠)

قال البخاري عن البراء قال: لما نزلت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاه ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله ﴿خَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وقال البخاري أيضاً عن سهل بن سعد الساعدي: أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد قال: فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أملى عليّ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فجاه ابن أم مكتوم وهو يملئها عليّ، قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ وكان فخذُه على فخذي فثقلت عليّ حتى خفت أن تُرَضَّ فخذي ثم سري عنه فأنزل الله: ﴿خَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

وعن ابن عباس قال: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾، عن بدر والخارجون إلى بدر، ولما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم: إنا أعميان يا رسول الله فهل لنا رخصة؟ فنزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة فهؤلاء القاعدون غير أولي الضرر ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ درجات منه ﴿على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر﴾، فقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كان مطلقاً فلما نزل بوحى سريع ﴿خَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾ صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد من العمى والعرج والمرضى عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين قال ابن عباس: ﴿خَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وكذا ينبغي أن يكون كما ثبت في صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إِن بِالْمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَا سَرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ وَلَا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ» قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم حسبهم العذر» وفي رواية عن النبي ﷺ قال: «لَقَدْ تَرَكْتُمْ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَاماً مَا سَرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ وَلَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ وَلَا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ» قالوا: وكيف يكونون معنا فيه يا رسول الله؟ قال: «نعم حسبهم العذر» قال الشاعر في هذا المعنى:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر فقد راحا

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أي الجنة والجزاء الجزيل، وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين بل هو فرض على الكفاية، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات، في غرف الجنات العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وأحوال الرحمة والبركات، إحساناً منه وتكريماً ولهذا قال: ﴿درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيمًا﴾.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إِن فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفِتْرَةَ ظَالِمِينَ أَلَمِ يَأْمُرُهُمْ رَبُّهُمْ أَنْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَنَّ لِلَّهِ الْكَلِمَ الْوَاتِقَةَ ۗ وَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عِذَابَ اللَّهِ الْجَبِلَ ۗ وَلَا يَتَذَكَّرُ أَلَمْ يَأْمُرَهُمْ اللَّهُ أَنْ يَقُولُوا رَبِّكُمْ غُفُورٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۗ ﴾ (١١١)

عن ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكترون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(١) وقال ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروها فاستغفروا لهم فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم. قال: فخرجوا فلقبهم المشركون فأعطوهم التقية فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾^(٢) الآية، قال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع، وينص هذه الآية حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي بترك الهجرة ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي لم مكنتم هاهنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً﴾ الآية، وقال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ إلى آخر الآية، هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حَبْلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ قال مجاهد: يعني طريقاً، وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ أي يتجاوز الله عنهم بترك الهجرة، وعسى من الله موجبة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَاً غَفُوراً﴾ قال البخاري عن أبي هريرة قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال: «سمع الله لمن حمده»؛ ثم قال قبل أن يسجد: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المهتضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها ستين كسني يوسف»، وقال البخاري عن ابن عباس: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ قال: كنت أنا وأمي ممن عذر الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا كَثِيرًا وَسِعَةً﴾ وهذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين وأن المؤمن حينما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه، والمرام مصدر تقول العرب: راغم فلان قومه مراغماً ومراغمة، قال النابغة ابن جعدة:

كطود يلاذ بأركانها عزيز المراغم والمهرب

وقال ابن عباس: المراغم التحول من أرض إلى أرض، وقال مجاهد: «مراغماً كثيراً» يعني: متزحزحاً عما يكره، والظاهر والله أعلم أنه المنع الذي يتخلص به ويرام به الأعداء. قوله: ﴿وَسِعَةً﴾ يعني الرزق قاله غير واحد منهم فتادة حيث قال في قوله: ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا كَثِيرًا وَسِعَةً﴾ أي من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مِهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي ومن يخرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر كما ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة

(١) رواه البخاري.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن.

يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، وهذا عام في الهجرة وفي جميع الأعمال، ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سأل عالماً: هل له من توبة؟ فقال له: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد أخرى يعبد الله فيه، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى أدركه الموت في أثناء الطريق فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء نائباً، وقال هؤلاء: إنه لم يصل بعد، فأمرُوا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه، وهذه أن تبعد فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشير، فقبضته ملائكة الرحمة.

قال الإمام أحمد عن عبد الله بن عتيك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله فخرَّ عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله». وقال ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خرج (ضمرة بن جندب) إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية، وقال الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازياً في سبيل الله فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة».

﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَاصْلُوا بَيْنَ يَدَيْكُمْ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الْغَافِلِينَ حُجُوجٌ كَمَا نَزَّلْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ مُوسَىٰ أَيْمَانَ لَا نَهْبَ فِي الْأَرْضِ وَالْجَنَاحَ مَشْرُوعًا وَلَا نَهْزًا فِي الْأَرْضِ وَأَقْبِلُوا عَلَىٰ الْقَوْمِ بِوَجْهِكَ بِالْجَوَادِ﴾

﴿١١١﴾

يقول تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ أي سافرتم في البلاد كما قال تعالى: ﴿وآخرون يضربون في الأرض﴾. وقوله: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ أي تخفروا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرابعة ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك فمن قائل لا بد أن يكون سفر طاعة: من جهاد، أو حج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيادة، أو غير ذلك. ومن قائل لا يشترط سفر القربة، بل لا بد أن يكون مباحاً لقوله: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم﴾ الآية، كما أباح له تناول الميتة مع الاضطرار بشرط أن لا يكون عاصياً بسفره، وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة. ومن قائل: يكفي مطلق السفر سواء كان مباحاً أو محظوراً حتى لو خرج لقطع الطريق وإخافة السبيل ترخص لوجود مطلق السفر وهذا قول أبي حنيفة والثوري وداود لعدم الآية وخالفهم الجمهور، وأما قوله تعالى: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الدين كفروا﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له كقوله تعالى: ﴿ولا تكروها فتياتكم على البقاء إن أردن تحصناً﴾ وكقوله تعالى: ﴿ورياتكم اللاتي في حجوركم من نسائكم﴾.

وقال الإمام أحمد عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت له قوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الدين كفروا﴾ وقد أمن الناس؟ فقال لي عمر رضي الله عنه: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته». وعن أبي حنظلة الحذاء قال: سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال: ركعتان، فقلت أين قوله: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الدين كفروا﴾ ونحن آمنون؟ فقال: ستة رسول الله ﷺ^(١). وقال ابن مردويه عن أبي الوداك قال:

(١) أخرجه ابن أبي شيبة.

سألت ابن عمر عن ركعتين في السفر فقال: هي رخصة نزلت من السماء فإن شتم فردوها. وقال أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف بينهما ركعتين ركعتين. وقال البخاري عن أنس يقول خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت: أقمتم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عشراً. وقال البخاري عن عبد الله بن عمر قال: صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين وأبي بكر وعمر وعثمان صدراً من إمارته ثم أتتها، وحدثننا إبراهيم قال: سمعت عبد الله بن يزيد يقول: صلى بنا عثمان بن عفان رضي الله عنه بمنى أربع ركعات فقبل في ذلك لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه فاسترجع، ثم قال: صليت مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين وصليت مع أبي بكر بمنى ركعتين وصليت مع عمر بن الخطاب بمنى ركعتين، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان^(١).

فهذه الأحاديث دالة صريحة على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف ولهذا قال من قال من العلماء إن المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية وهو قول مجاهد والضحاك والسدي كما سيأتي بيانه، واعتضدوا أيضاً بما رواه الإمام مالك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر. قالوا: فإذا كان أصل الصلاة في السفر الثلثين فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية لأن ما هو الأصل لا يقال فيه: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ وأصرح من ذلك دلالة على هذا ما رواه الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه قال: صلاة السفر ركعتان، وصلاة الأضحى ركعتان، وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد ﷺ، زاد مسلم والنسائي عن عبد الله بن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، فكما يصلي في الحضر قبلها وبعدها فكذلك يصلي في السفر. فهذا ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا ينافي ما تقدم عن عائشة رضي الله عنها لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان ولكن زيد في صلاة الحضر، فلما استقر ذلك صح أن يقال: إن فرض صلاة الحضر أربع كما قاله ابن عباس والله أعلم لكن اتفق حديث ابن عباس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان وأنها تامة غير مقصورة كما هو مصرح به في حديث عمر رضي الله عنه، وإذا كان كذلك فيكون المراد بقوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ قصر الكيفية كما في صلاة الخوف، ولهذا قال: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ الآية، ولهذا قال بعدها: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ الآية، فبين المقصود من القصر ههنا وذكر صفته وكيفيته ولهذا لما عقد البخاري كتاب صلاة الخوف صدره بقوله تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾، وقال مجاهد: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ يوم كان النبي ﷺ وأصحابه بعسفان والمشركون بضجنان فتواقفوا فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات بروكوعهم، وسجودهم، وقيامهم معاً جميعاً، فهم بهم المشركون أن يغيروا على أمتهم وأنقلهم.

وقال ابن جرير عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصر (صلاة الخوف) ولا نجد قصر (صلاة المسافر) فقال عبد الله: إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به، فقد سمي صلاة الخوف مقصورة وحمل الآية عليها لا على قصر صلاة المسافر، وأقره ابن عمر على ذلك واحتج على قصر الصلاة بفعل الشارع لا بنص القرآن، وأصرح من هذا ما رواه ابن جرير أيضاً عن سماك الحنفي قال: سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال: ركعتان تمام غير قصر إنما القصر في صلاة المخافة قلت: وما صلاة المخافة؟ فقال: يصلي الإمام بطائفة ركعة ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء ويجيء هؤلاء

(١) أخرجه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري.

إلى مكان هؤلاء فيصلي بهم ركعة فيكون للإمام ركعتان ولكل طائفة ركعة ركعة.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا آيَاتِكُمْ مِنْ ذُرَاهِمَ وَالنَّائِبَاتِ مِنْكُمْ فَإِنْ لَمْ يَأْخُذُوا فَمَا عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْرَءُوا لَهُمْ مِمَّا عَلَّمْتُمْ فِي كِتَابِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَأْخُذُوا بِهَا فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا رِجَالًا صَوَابًا مِمَّا عَلَّمْتُمْ فِي كِتَابِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَأْخُذُوا بِهَا فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا رِجَالًا صَوَابًا مِمَّا عَلَّمْتُمْ فِي كِتَابِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَأْخُذُوا بِهَا فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا رِجَالًا صَوَابًا مِمَّا عَلَّمْتُمْ فِي كِتَابِكُمْ﴾

صلاة الخوف أنواع كثيرة فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صوبها، والصلاة تارة تكون رباعية، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب، وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة وتارة يلتحم الحرب فلا يقدر على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبلها ورجالاً وركباناً، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة. ومن العلماء من قال: يصلون والحالة هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم وبه قال أحمد بن حنبل، وقال إسحاق بن راهويه: أما عند المسايغة فيجزئ ركعة واحدة توميء بها إيماء. فإن لم تقدر فسجدة واحدة لأنها ذكر الله. ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة كما أخر النبي ﷺ يوم الأحزاب الظهر والعصر فصلهما بعد الغروب، ثم صلى بعدهما المغرب ثم العشاء، وكما قال بعدها يوم بني قريظة حين جهز إليهم الجيش: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق، فقال منهم قائلون: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق، وأخر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها في بني قريظة بعد الغروب ولم يعنف رسول الله ﷺ أحداً من الفريقين. وأما الجمهور فقالوا: هذا كله منسوخ بصلاة الخوف فإنها لم تكن نزلت بعده، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك. فقله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف وهذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة - كما دل عليه الحديث - فرادى ورجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبلها، ثم ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد. وما أحسن ما استدلل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة فلولا أنها واجبة ما ساء ذلك. وأما من استدلل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبي ﷺ لقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ فبعد نفوت هذه الصفة، فإنه استدلال ضعيف، ويرد عليه مثل قول مانعي الزكاة الذين احتجوا بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ قالوا: فنحن لا ندفع زكاتها بعده ﷺ إلى أحد بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه، ولا ندفعها إلا إلى من صلته أي دعاؤه سكن لنا، ومع هذا رد عليهم الصحابة وأبوا عليهم هذا الاستدلال وأجبروهم على أداء الزكاة وقاتلوا من منعها منهم.

ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولاً قبل ذكر صفتها: قال ابن جرير عن علي رضي الله عنه قال: سألت قوم من بني النجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ثم انقطع الرحي، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي ﷺ فصلى الظهر، فقال المشركون لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم ملاً شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في أثرها قال: فأنزل الله عز وجل بين الصلاتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية فنزلت صلاة الخوف.

وعن أبي عياش الزرقني قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمسكان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أيمانهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر

والعصر ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾، قال: فحضرت فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح قال: فصفنا خلفه صفين قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم ركع فركعوا جميعاً ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلم عليهم، ثم انصرف قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم^(١).

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة، فجاه رجل منهم يقال له (غورث بن الحارث) حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف فقال: من يمنك مني؟ قال: «الله» فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «ومن يمنك مني؟» قال: «كن خير أخذ قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال: لا، ولكن أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخطى سبيله، فقال: جئتكم من عند خير الناس، فلما حضرت الصلاة صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف فكان الناس طائفتين: طائفة بإزاء العدو وطائفة صلوا مع رسول الله ﷺ فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين وانصرفوا فكانوا مكان الطائفة الذين كانوا بإزاء العدو ثم انصرف الذين كانوا بإزاء العدو فصلوا مع رسول الله ﷺ ركعتين فكان لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتين ركعتين^(٢). وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية وهو أحد قولي الشافعي ويدل عليه قول الله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذلوا حذركم﴾ أي بحيث تكونون على أهبه إذا احتجتم إليها ليستمرها بلا كلفة ﴿إن الله أهدى للكافرين طراباً مهيناً﴾.

﴿إِذَا قُضِيَتْ السَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيهَا وَتُؤْمَرُوا بِمَنْ حَبِيبُكُمْ فَمَا أَلْسَأْتُمْ فَأَقْبُوا السَّلَاةَ إِنَّ السَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَأَلْهَمُوا الْكُفْرَانَ كَمَا تُأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَإِنَّ اللَّهَ عِلْمًا حَكِيمًا ﴿١٠٨﴾﴾.

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف وإن كان مشروعاً مرغياً فيه أيضاً بعد غيرها ولكن هاهنا أكد، لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب، وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها كما قال تعالى في الأشهر الحرام: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ وإن كان هذا منهاياً عنه في غيرها، ولكن فيها أكد لشدة حرمتها وعظمتها، ولهذا قال تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ أي في سائر أحوالكم، ثم قال تعالى: ﴿فإذا اطمانتم فأتيموا الصلاة﴾ أي فإذا أمنتهم وذهب الخوف، وحصلت الطمأنينة ﴿فأتيموا الصلاة﴾ أي فأنمواها وأقيموا كما أمرتم بحدودها، وخشوعها، وركوعها، وسجودها، وجميع شئونها. وقوله تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ قال ابن عباس: أي مفروضاً، وقال ابن مسعود: إن للصلاة وقتاً كوقت الحج، وقال زيد بن أسلم: منجماً كلما مضى نجم جاء نجم، يعني كلما مضى وقت جاء وقت.

وقوله تعالى: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدوا فيهم، وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون﴾ أي كما يصيبكم الجراح والقتل كذلك يحصل لهم كما قال تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ ثم قال تعالى: ﴿وترجون من الله ما لا يرجون﴾ أي أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم من الجراح والألام، ولكن أنتم ترجون

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن.

(٢) تفرد به الإمام أحمد.

من الله المشوية والنصر والتأييد، كما وعدكم إياه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وهو وعد حق، وخبر صدق، وهم لا يرجون شيئاً من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم وأشد رغبة فيه، وفي إقامة كلمة الله وإعلانها ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه وينفذه ويحضيه من أحكامه الكونية والشرعية وهو المحمود على كل حال.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَادَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْمُخَلَّفِينَ حَاصِمًا ﴿١٦٥﴾ وَاسْتَفْتِمُوهَ اللَّهُ إِن كَانَتْ عُرُوقًا حَاصِمًا ﴿١٦٦﴾ وَلَا تَحْمِلُوا عَنَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا مِنْ أَثَرِ الْحَرْبِ إِن كَانُوا فِي الْحَرْبِ مُجْتَمِعِينَ ﴿١٦٧﴾ وَلَا يَسْتَحْفِظُونَ مِنَ اللَّهِ إِنَّهُمْ يُسْتَحْفِظُونَ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٦٨﴾ فَهَاتُوا حُرُوقًا حَاصِمًا فِي الْحَرْبِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا مِنْ أَثَرِ الْحَرْبِ إِن كَانُوا فِي الْحَرْبِ مُجْتَمِعِينَ ﴿١٦٩﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسوله محمد ﷺ: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ أي هو حق من الله وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه، وقوله: ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية وبما ثبت في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلية خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر وإنما أقضي بنحو مما أسمع ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يليدرها». وقال الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في موارث بينهما قد درست ليس عندهما بيعة، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها انتظاماً في عتقه يوم القيامة» فبكى الرجلان وقال كل منهما: حقي لأخي، فقال رسول الله ﷺ: «أما إذا قلتما فاذعبا فافتسما، ثم توخيا الحق ينكما ثم استهما، ثم ليحلل كل منكما صاحبه».

وقد روى ابن مردويه عن ابن عباس: أن نقرأ من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته فسرق درع لأحدهم فأظنُّ بها رجل من الأنصار فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن (طعمة بن أبيرق) سرق درعي. فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء، وقال لغير من عشرته: إني غيبته الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده، فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا بريء وإن صاحب الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك، فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس فأنزل الله: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين حاصمًا﴾، ثم قال تعالى للذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين ثم قال عز وجل: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ الآية يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب، ثم قال: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ يعني السارق والذين جادلوا عن السارق.

وقد روى هذه القصة الترمذي وابن جرير عن (قنادة بن النعمان) رضي الله عنه قال: كان أهل بيت منا يقال لهم (بنو أبيرق) بشر وبشير ومبشر، وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله لبعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، وقال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الرجل الخبيث. أو كما قال الرجل - وقالوا: ابن الأبيرق قالها، قالوا: وكانوا أهل بيت حنابلة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما

طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدت ضافطة^(١) من الشام من الدرهم^(٢) ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير فقدت ضافطة من الشام فابتاع عمي (رفاعة بن زيد) حملاً من الدرهم فجعله في مشربة له، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف، فعدي عليه من تحت البيت فتبعت المشربة وأخذ الطعام والسلاح. فلما أصبح أتاني عمي (رفاعة) فقال: يا ابن أخي إنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه فتبعت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا، قال فتحسنا في الدار وسألنا فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم. قال: وكان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدار - والله ما نرى صاحبكم إلا (ليبد بن سهل) رجلاً منا له صلاح وإسلام، فلما سمع ليبد اختلط سيفه، وقال: أنا أسرق؟! والله ليخالطنكم هذا السيف، أو لتبينن هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال النبي ﷺ: «سأمر في ذلك»، فلما سمع بذلك (بنو أبيرق) أتوا رجلاً منهم يقال له (أسيد بن عروة) فكلّموه في ذلك، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار، فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبوت، قال قتادة: فأتيت النبي ﷺ فكلّمته فقال: «عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبوت ولا بينة»، قال: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلّم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان، فلم تلبث أن نزل القرآن: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ يعني بني أبيرق «واستغفروا الله» أي مما قلت لقتادة ﴿إن الله كان عفواً رحيماً ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ إلى قوله ﴿رحيماً﴾ أي لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿ومن يكسب إثماً يكسبه على نفسه﴾ إلى قوله: ﴿إثماً ميتاً﴾ قوله لليبد: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾ إلى قوله: ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾.

فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعة، فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخاً قد عمي أو عشي في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولاً فلما أتيت به بالسلاح قال: يا ابن أخي هي في سبيل الله فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فنزل على (سلافة بنت سعد بن سمية) فأنزل الله تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً إن الله لا يقفر أن يشرك به ويفقر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً﴾ فلما نزل على سلافة بنت سعد هجاها (حسان بن ثابت) بأبيات من شعر فأخذت رحله فوضعت على رأسها ثم خرجت به فرمته في الأبطح، ثم قالت: أهديت لي شعر حسان ما كنت تأتيني بخير^(٣).

وقوله تعالى: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ الآية، هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبايحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بها مع أنه مطلع على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم ولهذا قال: ﴿وهو معهم إذ يبیتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ تهديد لهم ووعيد، ثم قال تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا﴾ الآية، أي هب أن هؤلاء انتصروا في

(١) المكارون الذين يظنون التجارة من بلد إلى بلد.

(٢) الدقيق الأبيض.

(٣) رواه الترمذي وابن جرير من حديث قتادة بن النعمان.

الدنيا بما أبدوه أو أبدى لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر وهم متعبدون بذلك، فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ يوم القيامة في ترويح دعواهم؟ أي لا أحد يومئذ يكون لهم وكيلًا، ولهذا قال: ﴿أَمْ مِنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ كَيْلًا؟﴾.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ نَنْتَفِرْ اللَّهُ بِجَدِّهِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٢﴾ وَمَنْ يَكْتُمْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْتُمِبُهُ خَلْفَ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٣﴾ وَمَنْ يَكْتُمْ خَاطِبَةً أَوْ إِقْرَبَ بِرَبِّهِ رَيْبًا فَكَيْدٌ أَخْشَمٌ إِنَّمَا أُنِيبًا ﴿١١٤﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٥﴾﴾.

يخبر تعالى عن كرمه وجوده أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ قال ابن عباس: أخبر الله عباده بحفوه وحلمه وكرمه، وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجيال^(١). وقال ابن جرير قال عبد الله: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول منه شيئاً قرضه بالمقراض، فقال رجل: لقد أتى الله بني إسرائيل خيراً، فقال عبد الله رضي الله عنه: ما أتاكم الله خيراً مما أتاهم جعل الماء لكم طهوراً، وقال تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا للنوبهم﴾ وقال: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾. وقال علي رضي الله عنه: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعني الله فيه بما شاء أن ينفعني منه، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له» وقرأ هاتين الآيتين: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ الآية، ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر﴾ أخرى الآية، يعني أنه لا يبغي أحد عن أحد، وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها، ولهذا قال تعالى: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي من علمه وحكمته، وعدله ورحمته كان ذلك، ثم قال: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً﴾ الآية يعني كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح وهو ليبيد بن سهل كما تقدم في الحديث، أو زيد بن السمين اليهودي على ما قاله الآخرون وقد كان بريئاً وهم الظلمة الخونة كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ؛ ثم هذا التصريح وهذا التوبيخ عام فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بصفاتهم فارتكب مثل خطيئتهم فعلية مثل عقوبتهم. وقوله: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء﴾ وقال الإمام ابن أبي حاتم عن قتادة بن النعمان وذكر قصة بني أبيرق فأنزل الله: ﴿لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء﴾ يعني أسيد بن عروة وأصحابه يعني بذلك لما أتوا على بني أبيرق ولاموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ، ولهذا أنزل الله فصل القضية وجلاءها لرسول الله ﷺ ثم امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال وعصمته له؛ وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن والحكمة؛ وهي السنة ﴿وهلمك ما لم تكن تعلم﴾ أي قبل نزول ذلك عليك كقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب﴾ إلى آخر السورة؛ وقال تعالى: ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس.

(٢) رواه أحمد.

الكتاب إلا رحمة من ربك ﴿ ولهذا قال: ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

﴿ لَا حَرَّ فِي كَثِيرٍ مِّنْ مَّجَاجِهِمْ إِلَّا مَنَ أَمْرٌ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِسْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ آتِبَعًا مَّرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ لُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَفُضِّلَ عَلَيْهِمْ صِهْرًا مَّعِينًا ﴿١١٥﴾ ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ لا خير في كثير من نجواهم ﴾ يعني كلام الناس ﴿ إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ أي إلا نجوى من قال ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه ابن مردويه عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا ذكر الله عز وجل، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر»، وفي الحديث: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينهي خيراً أو يقول خيراً»، وقال الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة؟» قالوا بلى يا رسول الله قال: «إصلاح ذات البين» قال: «وفساد ذات البين هي الحالقة» ورواه أبو داود والترمذي، ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله﴾ أي مخلصاً في ذلك محتسباً ثواب ذلك عند الله عز وجل ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً كبيراً واسعاً .

وقوله تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى﴾ أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق، والشرع في شق وذلك عن عمد منه، بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له، وقوله: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاهم عليه تحقياً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفاً لهم وتعظيماً لبيهم، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك. ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفتها هذه الآية الكريمة بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك ولهذا تواعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجاً له كما قال تعالى: ﴿فلذئني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾، وقال تعالى: ﴿فلما رآوا أراخ الله قلوبهم﴾ وقوله: ﴿ونلهم في طغيانهم يعمهون﴾ وجعل النار مصيره في الآخرة لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ الآية وقال تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَن يُشْرِكَ بِهِ، وَيَقْبِضُ مَا دُونَكَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنَّ يَدْعُونَكَ مِنَ الَّذِينَ إِذَا نَادُوا وَإِن يَدْعُونَكَ إِلَّا كَيْفَ لَئِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ ﴿١١٧﴾ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ قَالُوا لَنُؤْتِيَنَّكَ مِنَ الْغَنِيِّينَ أَجْرًا مِّمَّا تَدْعُونَ وَإِن يَدْعُونَكَ إِلَّا كَيْفَ لَئِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ ﴿١١٨﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَخْرَجًا ﴿١١٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَذَلِكُمْ كُنَّا خَالِفَةً جَدَّتْ نَجْرًا مِّنْ حَتَّىٰهَا الْأَنْهَارُ خَالِفِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَن أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ .

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿إن الله لا يغير أن يشرك به ويغير ما دون ذلك﴾ الآية، وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة وقد روى الترمذي عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية: ﴿إن الله لا يغير أن يشرك به﴾ الآية. وقوله: ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ أي فقد سلك غير الطريق الحق وضل عن الهدى وبعد عن الصواب وأهلك نفسه،

وخسرها في الدنيا والآخرة، وفاته سعادة الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَاءً﴾، عن عائشة قالت: أوثاناً، وقال ابن جرير عن الضحاك في الآية قال المشركون للملائكة: بنات الله، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: فاتخذوهن أرباباً وصوروهن جوارى فحكموا وقلدوا، وقالوا: هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده يعنون الملائكة وهذا التفسير شبيه بقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً﴾، وقال: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا﴾ وقال ابن عباس: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَاءً﴾ قال: يعني موتى، وقال الحسن: الإناث كل شيء ميت ليس فيه روح، إما خشبة يابسة، وإما حجر يابس، وقوله: ﴿وَأَنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك وحسنه وزينه لهم وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَهْدِ لَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ الآية، وقال تعالى إخباراً عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادعوا عبادتهم في الدنيا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي طرده وأبعده من رحمته، وأخرجه من جواره وقال: ﴿لَا تُخْطِئُنَّ مِنْ عِبَادِكُمْ نَسَبًا مَفْرُوضًا﴾ أي معيماً مقدراً معلوماً، قال قتادة: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة ﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ﴾ أي عن الحق ﴿وَلَا مَنَّتْهُمْ﴾ أي أزين لهم ترك التوبة، وأعدهم الأماني، وأمرهم بالتسوية والتأخير، وأغرهم من أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا مَرَنَّهُمْ فَلَئِنَّكَ أَذَانُ الْأَنْعَامِ﴾ قال قتادة: يعني تشقيها وجعلها سمة، وعلامة للبحيرة والسانية والرسيمة ﴿وَلَا مَرَنَّهُمْ فَلَئِنَّكَ خَلْقُ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك خصي الدواب، وقال الحسن البصري: يعني بذلك الوشم، وفي صحيح مسلم النهي عن الوشم في الوجه، وفي لفظ: لعن الله من فعل ذلك. وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنصات^(١)، والمتفلجات^(٢) للحسن المغيرات خلق الله عز وجل، ثم قال: ألا لعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله عز وجل؟ يعني قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

وقال ابن عباس في رواية عنه ومجاهد والضحاك في قوله: ﴿وَلَا مَرَنَّهُمْ فَلَئِنَّكَ خَلْقُ اللَّهِ﴾ يعني دين الله عز وجل وهذا كقوله: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ على قول من جعل ذلك أمراً أي لا تبدلوا فطرة الله ودعوا الناس على فطرتهم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تجدون بها من جدعاء؟» وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم^(٣) عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم». ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خَسْرًا مُبِينًا﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك لقاتتها.

وقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُهُمْ وَيَمْتَنِيهِمْ وَمَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا ضُرُورًا﴾ وهذا إخبار عن الواقع فإن الشيطان يعد أوليائه ويمتنعهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب واقترب في ذلك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا ضُرُورًا﴾، كما قال تعالى مخبراً عن إبليس يوم المعاد: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قَضَى الْأَمْرَ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي المستحسنون له فيما وعدهم ومثاهم ﴿مُلَؤَاهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف، ولا خلاص، ولا

(١) النامصات: ناتفات الزغب والشعر من الوجه، والمتنصات: اللواتي يتفن الشعر من وجوههن.

(٢) المتفلجات: اللواتي يبردن أطراف أسنانهن للتحجيل.

(٣) صرفتهم عن الهدى.

مناص . ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء وما لهم من الكرامة التامة فقال تعالى : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يصفونها حيث شاءوا وأين شاءوا ﴿خالدين فيها أبدا﴾ أي بلا زوال ولا انتقال ﴿وعدهم الله حقا﴾ أي هذا وعد من الله ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة، ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخير وهو قوله ﴿حقا﴾ ثم قال تعالى : ﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾ أي لا أحد أصدق منه قولاً أي خبراً لا إله إلا هو ولا رب سواه وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته : إن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا حَيًّا ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَسْلَوْنَ فِيهَا كَيْفًا ﴿١١٧﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ رِيسَ وَجْهًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١١٨﴾ وَاللَّهُ عَلَى السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَصَّاتٌ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ حَكِيمًا ﴿١١٩﴾﴾ .

قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب : نينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فتحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ونينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله : ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانتي أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ الآية، ثم أنزل الله حجة المسلمين على من نأواهم من أهل الأديان . وكذا روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية : تخصم أهل الأديان، فقال أهل التوراة : كتابنا خير الكتب، ونينا خير الأنبياء، وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال أهل الإسلام : لا دين إلا الإسلام، وكتابنا نسخ كل كتاب ونينا خاتم النبيين، وأمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا ففرض الله بينهم وقال : ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانتي أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ الآية؛ وخير بين الأديان فقال : ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ إلى قوله : ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ وقال مجاهد : قالت العرب لن نبعث ولن نعذب؛ وقالت اليهود والنصارى : ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ وقالوا : ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾ والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني؛ ولكن ما وفر في القلوب وصدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه هو على الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانتي أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على السنة الرسل الكرام؛ ولهذا قال بعده : ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ بِهِ﴾، كقوله : ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ .

وقد روي أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة، قال الإمام أحمد بسنده أخبر أن أبا بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية : ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانتي أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ فكل سوء عملناه جُزينا به؟ فقال النبي ﷺ : «غفر الله لك يا أبا بكر ألست تعرض؟ ألست تنصب؟ ألست تصيبك اللاؤاء؟» قال : بلى، قال : «فهو مما تجزون به». وروى أبو بكر بن مردويه عن أبي بكر الصديق قال : كنت عند النبي ﷺ فنزلت هذه الآية : ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ بِهِ ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ فقال رسول الله ﷺ : «يا أبا بكر ألا أفرقت آية أنزلت علي؟» قلت : بلى يا رسول الله قال : فأقرأنها فلا أعلم أنني قد وجدت انفصاماً في ظهري حتى تمطيت لها، فقال رسول الله ﷺ : «ما لك يا أبا بكر؟» قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأينا لم يعمل سوءاً، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه؟ فقال

رسول الله ﷺ: «أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم تجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة». وقال ابن جرير: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر: جاءت قاصمة الظهر فقال رسول الله ﷺ: «إنما هي المصيبات في الدنيا».

(حديث آخر): قال سعيد بن منصور عن عائشة: أن رجلاً تلا هذه الآية: «من يعمل سوءاً يجز به» فقال: «إنا لنجزى بكل ما عملناه؟ هلكننا إذا! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «نعم يجزى به المؤمن في الدنيا في نفسه في جسده فيما يؤذيه».

(طريق أخرى): قال ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله إني لأعلم أشد آية في القرآن فقال: «أما هي يا عائشة؟» قلت: «من يعمل سوءاً يجز به» فقال: «هو ما يصيب العبد المؤمن حتى النكبة ينكبه». وعن علي بن زيد عن ابنته أنها سألت عائشة عن هذه الآية: «من يعمل سوءاً يجز به» فقالت: ما سألني أحد عن هذه الآية منذ سألت عنها رسول الله ﷺ سألت رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة هذه مبايعة الله للعبد مما يصيبه من الخمس والنكبة والشوكة حتى البضاعة فيضعها في كفه فيفزع لها فيجدها في جيبه حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما أن الذهب يخرج من الكبر».

(حديث آخر): قال سعيد بن منصور عن محمد بن قيس بن مخزومة: أن أبا هريرة رضي الله عنه قال لما نزلت «من يعمل سوءاً يجز به» شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله ﷺ: «سددوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبه» وهكذا رواه أحمد؛ ورواه ابن جرير عن عبد الله بن إبراهيم سمعت أبا هريرة يقول: لما نزلت هذه الآية: «ليس بأمانتكم ولا أمان أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به» بكينا وحزنا وقلنا: يا رسول الله ما أثبت هذه الأمة من شيء قال: «أما والذي نفسي بيده إنها لكما أنزلت ولكن أبشروا وقاربوا وسددوا فإنه لا يصيب أحداً منكم مصيبة في الدنيا إلا كفر الله بها من خطيئته حتى الشوكة يشاكها أحدكم في قدمه».

(حديث آخر): روى ابن مردويه عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله «من يعمل سوءاً يجز به» قال: «نعم ومن يعمل حسنة يجز بها عشرأ، فهلك من غلب واحدته عشراته». وقال ابن جرير عن الحسن «من يعمل سوءاً يجز به» قال: الكافر ثم قرأ: «وهل نجازي إلا الكفور». وقوله: «ولا يجده له من دون الله ولياً ولا نصيراً» قال ابن عباس: إلا أن يتوب فيتوب الله عليه رواه ابن أبي حاتم. والصحيح أن ذلك عام في جميع الأعمال لما تقدم من الأحاديث وهذا اختيار ابن جرير والله أعلم.

وقوله تعالى: «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن» الآية. لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا وهو الأجود له، وإما في الآخرة والعياذ بالله من ذلك؛ ونسأله العاقبة في الدنيا والآخرة، والصفح والعمو والمسامحة، شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده، ذكراهم وإناهم بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقيير، وهو النقرة التي في ظهر نواة التمرة، وقد تقدم الكلام على الفتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة، وهذا النقيير وهما في نواة التمرة والقطيمير وهو اللفافة التي على نواة التمرة، والثلاثة في القرآن. ثم قال تعالى: «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله؟» أي أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيماناً واحتساباً «وهو محسن» أي اتبع في عمله ما شرعه الله له وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما أي يكون (خالصاً صواباً) والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متابعاً للشرعية فيصح ظاهره بالمشابفة، وباطنه بالإخلاص فحتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمن فقد الإخلاص كان منافقاً وهم الذين يراؤون الناس، ومن فقد المشابفة كان ضالاً جاهلاً، ومتى جمعتهما كان

عمل المؤمنين ﴿الذين نتقبل منهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم﴾ ، ولهذا قال تعالى : ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة﴾ كما قال تعالى : ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ والحنيف هو المائل عن الشرك قصداً أي تاركاً له عن بصيرة ومقبل على الحق بكلية لا يصد عنه صاد، ولا يرد عنه راد .

وقوله تعالى : ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه ، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له فإنه انتهى إلى درجة الخلقة التي هي أرفع مقامات المحبة ، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه كما وصفه به في قوله : ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ قال كثير من علماء السلف : أي قام بجميع ما أمر به ، وفى كل مقام من مقامات العبادة ، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير ، ولا كبير عن صغير ، وقال تعالى : ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ الآية ، وقال البخاري عن عمرو بن ميمون قال : إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ : ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ فقال رجل من القوم : لقد قرت عين أم إبراهيم . وإنما سمي خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها ، ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال : «أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله» .

وروى أبو بكر بن مردويه عن عكرمة عن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذكرون فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول : عجب إن الله اتخذ من خلقه خليلاً فأبراهيم خليله ، وقال آخر : ما ذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً ، وقال آخر : فعيسى روح الله وكلمته ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم فسلم وقال : «قد سمعت كلامكم وتمعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى كلمه ، وعيسى روحه وكلمته ، وآدم اصطفاه الله ، وهو كذلك ، وكذلك محمد ﷺ قال : ألا وإني حبيب الله ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فيفتح الله ويدخلنيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر» (١) . وهذا حديث غريب ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها .

وعن إسحاق بن يسار قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجل حتى إن خفقان قلبه ليسمع من بعيد كما يسمع خفقان الطير في الهواء ، وهكذا جاء في صفة رسول الله ﷺ أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل إذا اشتد غليانها من البكاء . وقوله : ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وخلقها ، وهو المتصرف في جميع ذلك ، لا راد لما قضى ، ولا معقب لما حكم ، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته . وقوله : ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية من عباده ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، ولا تخفى عليه ذرة لما تراه للناظرين وما توارى .

﴿وَسَأَلُوهُ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يَتَّبِعُكُمْ فِيهِمْ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَسْرِ النِّسَاءِ الَّذِي لَا تَوَلَّوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ يَكْتُمُوهُنَّ وَالسُّنَنِيُّ مِنَ الْوَالِدَانِ وَأَنْ تَقْرُمُوا لِلْيَتَامَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٣٧﴾﴾ .

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها : ﴿وستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن﴾ إلى قوله :

عن عائشة قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبي ﷺ يقسم لها بيوم سودة. وعن عروة عن عائشة، أنها قالت له: يا ابن أخي، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضاً على بعض في مكثه عندنا، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت، وقرئت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله يومي هذا لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ. قالت عائشة: ففي ذلك أنزل الله: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إهراساً﴾^(١).

وروى ابن جرير عن عائشة: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إهراساً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾ قالت: هذا في المرأة تكون عند الرجل، فلعله لا يكون بمستكثر منها، ولا يكون لها ولد، ويكون لها صحبة فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني. وفي رواية أخرى عن عائشة: هو الرجل له المرأتان إحداهما قد كبرت والأخرى دميمة وهو لا يستكثر منها فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني. وعن ابن سيرين قال: جاء رجل إلى عمر ابن الخطاب فسأله عن آية فكرهه فصره بالذرة، فسأله آخر عن هذه الآية: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إهراساً﴾ ثم قال مثل هذا فاسألوا، ثم قال: هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سنه فيتزوج المرأة الشابة يلتبس ولدها، فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز. وقال ابن حاتم عن خالد بن عرعة قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فسأله عن قول الله عز وجل: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إهراساً فلا جناح عليهما﴾ قال علي: يكون الرجل عنده المرأة فتتبر عيناه عنها من دعامتها، أو كبيرها، أو سوء خلقها، أو قذوها فتكره فراقه، فإن وضعت له من مهرها شيئاً حل له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي عن الزهري: أخبرني سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار: أن السقة في هاتين الآيتين اللتين ذكر الله فيهما نشوز الرجل وإعراضه عن امرأته في قوله: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إهراساً﴾ إلى تمام الآيتين، أن المرأة إذا نشز عن امرأته وأثر عليها، فإن من الحق أن يعرض عليها أن يطلقها أو تستقر عنده على ما كانت من أثره في القسم من ماله ونفسه، صلح له ذلك وكان صلحها عليه، كذلك ذكر (سعيد بن المسيب) و (سليمان) الصلح الذي قال الله عز وجل: ﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾ وقد ذكر لي أن رافع بن خديج الأنصاري - وكان من أصحاب النبي ﷺ - كانت عنده امرأة حتى إذا كبرت تزوج عليها فتاة شابة وأثر عليها الشابة، فنأشده الطلاق فطلقها تطليقة، ثم أمهلها حتى إذا كادت تحل راجعها، ثم عاد فأثر عليها الشابة فنأشده الطلاق، فقال لها: ما شئت إنما بقيت لك تطليقة واحدة، فإن شئت استقررت على ما ترين من الأثرة وإن شئت فارقتك، فقالت: لا بل أستقر على الأثرة، فأمسكها على ذلك فكان ذلك صلحهما، ولم ير رافع عليه إثماً حين رضيت أن تستقر عنده على الأثرة فيما أثر به عليها^(٢).

وقوله تعالى: ﴿والصلح خير﴾ قال ابن عباس: يعني التخيير، وهذه هي الحالة الثانية: أن يخير الزوج لها بين الإقامة والفرق خير من تمادي الزوج على أثره غيرها عليها، والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبي ﷺ (سودة بنت زمعة) على أن تركت يومها لعائشة رضي الله عنها، ولم يفارقها بل تركها من جملة نساته، وفعله ذلك لتأسى به أمته في مشروعية ذلك وجوازه، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام، ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفرق قال: ﴿والصلح خير﴾، بل الطلاق بغض إليه سبحانه وتعالى، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه البيهقي وابن أبي حاتم.

وابن ماجة عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أبفض الحلال إلى الله الطلاق».

وقوله تعالى: «وإن تحسبوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً»، وإن تجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهم، وتقسموا لهم أسوة أمثالهم فإن الله عالم بذلك وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء، وقوله تعالى: «ولن تستطيعوا أن تعملوا بين النساء ولو حرصتم» أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تساروا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن وقع القسم الصوري ليلة وليلة فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع كما قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك. وجاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن عبد الله بن يزيد عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قسي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»، يعني القلب. وقوله: «فلا تميلوا كل الميل» أي فإذا ملتم إلى واحدة منهم فلا تبالغوا في الميل بالكلية «فتشروها كالمعلقة» أي تفيق هذه الأخرى معلقة، قال ابن عباس وآخرون: معناه لا ذات زوج ولا مطلقة؛ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقطاً»^(١).

وقوله تعالى: «وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان عفواً رحيماً» أي وإن أصلحتم في أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض، ثم قال تعالى: «وإن يفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً» وهذه هي الحالة الثالثة: وهي حالة الفراق؛ وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا فرقا فإن الله يغني عنها ويغنيها عنه، بأن يعوضه الله من هو خير له منها ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه، «وكان الله واسعاً حكيماً» أي واسع الفضل عظيم المن حكيماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

﴿وَلَقَدْ مَكَانِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ﴿١١٢﴾ **﴿لَقَدْ مَكَانِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾** ﴿١١٣﴾ **﴿لَقَدْ مَكَانِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾** ﴿١١٤﴾ **﴿لَقَدْ مَكَانِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾** ﴿١١٥﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه الحاكم فيهما ولهذا قال: «ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم» أي وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لا شريك له، ثم قال: «وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض» الآية، كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه: «إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد»، وقال: «فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد» أي غني عن عباده، «حميد» أي محمود في جميع ما يقدره وشرعه، وقوله: «والله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً» أي هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء، وقوله: «إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً» أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، كما قال: «وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا تكونوا أمثالكم» قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره! وقال تعالى: «إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد» وما ذلك على الله بعزيز» أي وما هو عليه بممتنع.

وقوله تعالى: «من كان يريد ثواب الدنيا فعدت الله ثواب الدنيا والآخرة» أي يا من ليس له حمة إلا الدنيا اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك، كما قال تعالى: «فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق». وقال تعالى: «من كان يريد حرث

الآخرة نزل له في حشره ﴿ الآية ، وقال تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ الآية . وقوله : ﴿ عند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ ظاهر في حصول الخير في الدنيا والآخرة ، أي بيده هذا وهذا ، فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط ، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده النضر والشفع ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ، الذي قد قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة ، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا ، وممن يستحق هذا ، ولهذا قال : ﴿ وكان الله سميعاً بصيراً ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْوَسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّذِينَ عَلَّمْتُمْ أَوْ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ عَنَيْتُمْ أَوْ فُقِيرًا فَإِنَّهُ أَوْلَىٰ بِمَا تَرَكَوْنَ إِن تَرَكْتُمْ أَهْلًا أَوْ تَرَكَوْا أَوْ تَرَكَوْا أَوْ تَرَكَوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٥﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متعاضدين متعاضدين متناصرين فيه . وقوله : ﴿ شهداء لله ﴾ كما قال : ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ أي أدوها ابتغاء وجه الله ، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً ، خالية من التحريف والتبديل والكتمان ، ولهذا قال : ﴿ ولو على أنفسكم ﴾ أي اشهد شهادة الحق ولو عاد ضررها عليك ، وإذا مثلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرتك عليك ، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه ، وقوله : ﴿ أو الوالدين والأقربين ﴾ أي وإن كانت الشهادة على والدك وقربتك فلا تراعهم فيها ، بل اشهد شهادة الحق وإن عاد ضررها عليهم فإن الحق حاكم على كل أحد ، وقوله : ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾ أي لا ترعاه لغناه ولا تشق عليه لفقره ، فالله يتولاهما ، بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما . وقوله : ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشئونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يجرمكم شأن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ ، ومن هذا قول (عبد الله بن رواحة) لما بعثه النبي ﷺ يحرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال : والله لقد جتكم من عند أحب الخلق إليّ ولأنتم أبغض إلي من أعدادكم من الفردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض .

وقوله تعالى : ﴿ وإن تلووا أو تعرضوا ﴾ ، قال مجاهد : تلووا أي تحرفوا الشهادة وتغيروها ، واللي : هو التحريف وتعهد الكذب ؛ قال تعالى : ﴿ وإن منهم لفرقة بلوون ألستهم بالكتاب ﴾ الآية ، والإعراض : هو كتمان الشهادة وتركها قال تعالى : ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ ، وقال النبي ﷺ : « خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها ، ولهذا ترعدهم الله بقوله : ﴿ فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ أي وسيجازيكم بذلك .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالصِّبَةِ الَّتِي أَنْزَلَ مِنَ قَبْلِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٢٦﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانها ودعائمه ، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل ، بل من باب تكميل الكامل وتقديره وتشيته والاستمرار عليه ، كما يقول المؤمن في كل صلاة ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي بضرنا وزدنا هدى ، وثبتنا عليه ، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأمنوا برسوله ﴾ ، وقوله : ﴿ والكتاب الذي نزل على رسوله ﴾ يعني القرآن ﴿ والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة ، وقال في القرآن ﴿ نزل ﴾ لأنه نزل مفرقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم ، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ ، أي فقد خرج عن طريق الهدى ، وبعد عن القصد كل البعد .

تعالى: ﴿فَالله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة، فلا تفتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما له في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصل ما في الصدور.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال: كيف هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؟ فقال علي رضي الله عنه: ادنه الله ﴿فَالله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ قال ذلك يوم القيامة، وكذا روى السدي: يعني يوم القيامة، وقال السدي ﴿سَبِيلًا﴾ أي حجة، ويحتمل أن يكون المعنى: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً أي في الدنيا، بأن يسلبوا عليهم استئلاء استحصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية، وعلى هذا يكون رداً على المنافقين فيما أثلوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم، إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَأْمُرُ بِهِمْ﴾، وقد استدك كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولي العلماء وهو المنع من بيع (العبد المسلم) للكافرين لما في صحة اتباعه من التسليط له عليه والإذلال، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه في الحال، لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخْتَصِمُونَ اللهُ وَهُوَ خَدِيْعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَمَا كَانُوا النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١١٦﴾ تُذَكِّرُونَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا كَوْلًا وَلَا إِلَهَ إِلَّا كَوْلًا وَمَنْ يَحْتَلِلْ اللهُ مَن قَبْلَهُ لَمْ يَسْبِلًا ﴿١١٧﴾

قد تقدم في أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقال ههنا: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهُ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ ولا شك أن الله لا يخادع، فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم، يعتقدون أن أمرهم - كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً - فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللهُ جَمِيعًا فَيُحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويخدلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا، وكذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ نُورِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَيْسَ الْمَصِيرُ﴾، وقد ورد في الحديث: «من سَمِعَ سَمِعَ اللهُ به، ومن رآه رآه اللهُ به»، وفي الحديث الآخر: «إن الله يأمر بالعباد إلى الجنة فيما يبدو للناس ويعدل به إلى النار» عياداً بالله من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَمَا كَانُوا﴾ الآية، هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي (الصلاة) إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها، لأنهم لا تية لهم فيها ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يحفلون معناها كما روى ابن مردويه عن ابن عباس قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة شديد الفرح، فإنه يناجي الله، وإن الله تجاهه يقفر له ويحييه إذا دعاه، ثم يتلو هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَمَا كَانُوا﴾، فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَمَا كَانُوا﴾ هذه صفة ظواهرهم كما قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى﴾، ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿يُرَآءُونَ النَّاسَ﴾ أي لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يرون فيها غالباً (صلاة العشاء) في وقت العتمة، و(صلاة الصبح) في وقت الغلس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة

على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم أمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال ومعهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار». وفي رواية: «والذي نفسي بيده لو علم أحدهم أنه يجد عزقاً سمياً أو مرماتين حستين لشهد الصلاة، ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار». وقال الحافظ أبو يعلى عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأسأها حيث يخلو، فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل»؛ وقوله: «ولا يذكرون الله إلا قليلاً» أي في صلاتهم لا يخشعون ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعما يراد بهم من الخير معرضون. وقد روى الإمام مالك عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق: يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً».

وقوله تعالى: «مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء» يعني المنافقين منحرفين بين الإيمان والكفر فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يمتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك، «كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا»، وقال مجاهد «مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء» يعني أصحاب محمد ﷺ، «ولا إلى هؤلاء» يعني اليهود، وقال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين»^(١٧).

وقال ابن جرير عن قتادة «مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء» يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين، ولا مشركين مصرحين بالشرك، قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن وللمنافق وللكافر كمثل رطل ثلاثة دفعوا إلى نهر فوقع المؤمن فقطع، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر: أن هلم إلي فإني أخشى عليك، وناداه المؤمن: أن هلم إلي فإن عندي وعندني يحصي له ما عنده، فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى عليه الماء فغرقه، وإن المنافق لم يزل في شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك، قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «مثل المنافق كمثل ثاغية بين غنمين رأت غنماً على نحر فانتها وشامتها فلم تعرف، ثم رأت غنماً على نحر فانتها فقامتها فلم تعرف»، ولهذا قال تعالى: «ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً» أي ومن صرفه عن طريق الهدى «فلن تجد له ولياً مرشداً»، فإنه «من يضلل الله فلا هادي له»، والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم، ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُوا أَن يَحْمِلُوا فِيهِمْ غَلَبَتُكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٧٧﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَعْلَى مِنَ النَّارِ وَلَنُجِزَنَّهُمْ نَجْوًا ﴿١٧٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الصَّفْحَ وَالنَّفْسَ بِاللهِ وَأَخْلَصُوا بِاللهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧٩﴾ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِمَا يُكْفِّرُكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَكَأَن كَفَرْتُمْ وَقَدْ آمَنْتُمْ وَكَأَن اللهُ شَاحِكٌ مُّخِيلٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم، ومناصحتهم وإسرار العودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين». ولهذا قال ههنا: «أتريدون أن تحملوا الله عليكم سلطاناً مبيناً؟ أي حجة عليكم في عقوبته إياكم، قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: «سلطاناً مبيناً» قال: كل سلطان في القرآن حجة، وهذا إسناد صحيح، ثم أخبر تعالى: «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار» أي

يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ، قال ابن عباس: أي في أسفل النار، وقال غيره النار (درجات) كما أن الجنة (درجات) وقال سفيان الثوري **«إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار»** قال: في توابيت تُرتج عليهم.

وعن أبي هريرة قال **«الدرك الأسفل»**: بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم، قال ابن جرير عن عبد الله بن مسعود **«إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار»** قال: في توابيت من نار تطبق عليهم أي مغلقة مغلقة، **«ولن تجد لهم نصيراً»** أي يتقدمهم مما هم فيه ويخرجهم من أليم العذاب. ثم أخير تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب عليه وقبل ندمه إذا أخلص في توبته وأصلح عمله، واعتصم بربه في جميع أمره، فقال تعالى: **«إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله»** أي بدلوا الرياء بالإخلاص، فينفعهم العمل الصالح وإن قل. قال ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ قال: **«أخلص دينك يكفك القليل من العمل»**. **«فأولئك مع المؤمنين»** أي في زمرة يوم القيامة **«وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً»**، ثم قال تعالى مخبراً عن غناه عما سواه وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم **«ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم»**؟ أي أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله، **«وكان الله شاكراً حلماً»** أي من شكر شكر له، ومن آمن قلبه به علمه وجزاءه على ذلك أوفر الجزاء.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَرِ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ عَفَىٰ ذَكَرَ اللَّهُ حَيْمًا عَلَيْكَ﴾ **﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ أَوْ عَفَوْا عَنْ سُوْرَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾**.

قال ابن عباس في الآية يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: **«إلا من ظلم»**، وإن صبر فهو خير له، وقال الحسن البصري: لا يدع عليه، وليقل: اللهم أعني عليه واستخرج حقي منه، وفي رواية عنه قال: قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه، وقال عبد الكريم الجزري في هذه الآية: هو الرجل يشتك فتشتمه، ولكن إن افتري عليك فلا تفتري عليه لقوله: **«ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل»**، وقال أبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«المستبان ما قاله فعلى الجادى منهما ما لم يعتد المظلوم»**. وعن مجاهد **«لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم»** قال: هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فيقول: أساء ضيافتي ولم يحسن. وقد روى الجماعة سوى النسائي والترمذي عن عقبة بن عامر قال: قلنا: يا رسول الله إنك تبغتنا فننزل بقوم فلا يقرونا، فما ترى في ذلك؟ فقال: **«إذا نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف فأقبلوا منهم، وإن لم يفعلوا فخذلوا منهم حتى الضيف الذي ينبغي لهم»**، وعن النبي ﷺ أنه قال: **«أيما مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً فإن حقاً على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقري ليلته من زرعه وماله»** تفرد به أحمد.

ومن هذه الأحاديث وأمثالها ذهب أحمد وغيره إلى وجوب الضيافة، ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جاراً يؤذيني فقال له: **«أخرج متاعك فضعه على الطريق»**، فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فكل من مر به قال: ما لك؟ قال: جاري يؤذيني، فيقول: اللهم العنه، اللهم أخزه، قال: فقال الرجل: أرجع إلى منزلك والله لا أؤذيك أبداً. وقوله: **«إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً»**، أي إن أظهرتم أيها الناس خيراً أو أخفيتموه أو عفوتم عن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم، ولهذا قال: **«فإن الله كان عفواً قديراً»**، ولهذا ورد في الأثر أن حملة العرش يسبحون الله فيقول بعضهم: سبحانك على حلمك بعد علمك، ويقول بعضهم: سبحانك على عفوك بعد قدرتك، وفي الحديث الصحيح: **«ما نقص مال من صدقة، ولا زاد الله عبداً بعفو**

إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۗ ﴿١٥١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ۗ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۗ ﴿١٥٣﴾﴾

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به ويرسله من اليهود والنصارى، حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان فأمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، بمجرد التشهي والعادة وما ألفوا عليه آباءهم، لا عن دليل قادمهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك، بل بمجرد الهوى والعصية، فاليهود عليهم لعائن الله آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ، والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رد نبوته للحسد أو العصية أو التشهي نبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض وهوى وعصية، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ أي في الإيمان، ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ أي طريقاً ومسلكاً، ثم أخبر تعالى عنهم فقال: ﴿أولئك هم الكافرون حقا﴾ أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به لأنه ليس شرعياً، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه، أو نظروا حق النظر في نبوته.

وقوله تعالى: ﴿وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة إليه، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته كما كان يفعله كثير من أجبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ، حيث حسدوه على ما أتاه الله من النبوة العظيمة، وخالفوه وكذبوه وعادوه وقتلوه، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الآخروي، ﴿وضربت عليهم اللذة والمسكنة وماآوا بغضب من الله﴾ في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ يعني بذلك أمة محمد ﷺ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي بعثه الله، كما قال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله﴾ الآية، ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل، فقال: ﴿أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾ على ما آمنوا بالله ورسله، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي لذنوبهم، أي إن كان لبعضهم ذنوب.

﴿يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِثْلَ مَا نَزَّلْنَا بِرُسُلِنَا وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نؤمنُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ إِذْ تُنَزَّلُ الْآيَاتُ مِنَ اللَّهِ فَيَذَرُوهَا كَذَرِ الْأُنثَىٰ ذَاتِ الْوَعْدِ فَأَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ۗ ﴿١٥٤﴾﴾

قال السدي وقناة: سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة. وقال ابن جريج: سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه فيما جاءهم به، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفار قريش قباهم نظير ذلك كما هو مذكور في سورة الإسراء: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات، ولهذا قال تعالى: ﴿فقد سألو موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾، أي بطغيانهم وبغيهم وعتوهم وعنادهم، وهذا مفسر في سورة البقرة حيث يقول تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن بطغيانهم وبيغيهم وعتوهم وعنادهم، وقد رواه الحافظ ابن كثير بلفظ (ومن تواضع لله رفعه) ولفظه عندهم

(١) الحديث رواه مسلم ومالك والترمذي، وقد رواه الحافظ ابن كثير بلفظ (ومن تواضع لله رفعه) ولفظه عندهم (ولا تواضع عبد لله إلا رفعه الله).

نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون»، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعَجَلِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى عليه السلام في بلاد مصر، وما كان من إهلاك عدوهم فرعون وجميع جنوده في اليم، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾. ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مسبوطة في سورة (الأعراف) وفي سورة (طه) بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله عز وجل، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده فجعل يقتل بعضهم بعضاً، ثم أحياهم الله عز وجل، وقال الله تعالى: ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مَبِيناً﴾، ثم قال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَالِ الْحَبَّةِ﴾، وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام رفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم ألزموا فالترسوا وسجدوا وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَقَّنا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خَلَّوْا مَا أَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ الآية، ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ أي فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب (بيت المقدس) سجداً وهم يقولون حطة، أي اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه حتى تهنا في التيه أربعين سنة، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون حنطة في شعرة ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي وصنابهم بحفظ السبت والقيام ما حرم الله عليهم ما دام مشروعاً لهم، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمُ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ أي شديداً فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عز وجل، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآيات، وسياقي حديث صفوان بن عسال في سورة سبحان عند قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، وفيه «وعليكم خاصة يهود أن لا تعدوا في السبت».

﴿فَمَا تَفِضِهِمْ بِنِقْمَتِهِمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَوْلِهِمْ الْآيَاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ يَكْفُرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (١٥٥) ﴿يَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلٰى مَرْيَمَ حَتْمًا عَظِيماً﴾ (١٥٦) ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الْغُلْفِ وَمَا قَوْلُهُمْ بَيِّنَاتٌ﴾ (١٥٧) ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ تَرِيماً حَكِيماً﴾ (١٥٨) ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ قَوْلًا مَوْفُورًا وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ يَكُونُ عَلَيْهِمْ حَيْبًا﴾ (١٥٩).

وهذا من الذنوب التي ارتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نفضهم الموائيق والعمود التي أخذت عليهم ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ أي حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام. قوله: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ وذلك لكثرة إجرامهم واجترانهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جماعاً كثيراً من الأنبياء عليهم السلام ﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾، قال ابن عباس: أي في غطاء، وهذا كقول المشركين: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ الآية، وقيل: معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غلفت للعالم أي أوعية للعالم قد حوته وحصلته، قال الله تعالى: ﴿بَلْ طَعِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا يَكْفُرِهِمْ﴾، فعلى القول الأول: كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول لأنها في غلف وفي أكنة، قال الله: بل هي مطبوع عليها بكفرهم، وعلى القول الثاني: عكس علم ما ادعوه من كل وجه، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة. ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي ثمرت قلوبهم على الكفر والطغيان، وقلة الإيمان ﴿ويكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ قال ابن عباس: يعني أنهم رموها بالزنا. قال السدي: والظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظام، فجعلوها ذاتية وقد حملت بولدها من ذلك، زاد بعضهم: وهي حائض، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وقولهم: ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتله وهذا منهم من باب (التهكم والاستهزاء) كقول المشركين: ﴿يا أيها الذي نزل عليه

شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء (المسلمون) فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ^(١).

وروى ابن جرير عن ابن إسحاق، قال: كان اسم ملك بني إسرائيل الذي بعث إلى عيسى ليقبله رجلاً منهم يقال له (داود)، فلما أجمعوا لذلك منه لم يقطع عبد من عباد الله بالموت - فيما ذكر لي - قطعه، ولم يجزع منه جزعه ولم يدع في صرفه عنه دعاءه، حتى إنه ليقول فيما يزعمون: اللهم إن كنت صارفاً هذه الكأس عن أحد من خلقك فاصرفها عني، وحتى إن جلده من كرب ذلك ليتقصد دماً، فدخل المدخل الذي أجمعوا أن يدخلوا عليه فيه ليقتلوه هو وأصحابه وهم ثلاثة عشر بعيسى عليه السلام، فلما أيقن أنهم داخلون عليه، قال لأصحابه من الحواريين - وكانوا اثني عشر رجلاً سوى عيسى عليه السلام - جحدته النصراني، فجحدهوه حين أقروا لليهود بصلب عيسى وكفروا بما جاء به محمد ﷺ من الخبر عنه.

قال ابن إسحاق: وحدثني رجل كان نصرانياً فأسلم، أن عيسى حين جاءه من الله إنني رافعتك إلي، قال: يا معشر الحواريين أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة حتى يشبه للقوم في صورتني فيقتلوه في مكاني؟ فقال (سرجس): أنا يا روح الله، قال: فاجلس في مجلسي فجلس فيه، ورفق عيسى عليه السلام، فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه، فكان هو الذي صلبوه وشبه لهم به، وكانت عدتهم حين دخلوا مع عيسى معلومة، قد رأوهم فأحصوا عدتهم، فلما دخلوا عليهم ليأخذوه وجدوا عيسى وأصحابه فيما يرون وفقدوا رجلاً من العدة، فهو الذي اختلفوا فيه، وكانوا لا يعرفون عيسى حتى جعلوا له (ليودس زكريا يوطا) ثلاثين درهماً على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه، فقال لهم: إذا دخلتم عليه قبتي سابقله، وهو الذي أقبل فخذه، فلما دخلوا وقد رفع عيسى ورأى سرجس في صورة عيسى فلم يشك أنه هو، فأكب عليه فقبله، فأخذوه فصلبوه، ثم إن (يودس زكريا يوطا) ندم على ما صنع، فاختنق بحبل حتى قتل نفسه - وهو ملعون في النصراني، وقد كان أحلم المعدودين من أصحابه، وبعض النصراني يزعم أن (يودس زكريا يوطا) هو الذي شبه لهم فصلبوه، وهو يقول: إنني لست بصاحبكم، أنا الذي دللتكم عليه والله أعلم أي ذلك كان. وقال ابن جرير عن مجاهد: صلبوا رجلاً شبه بعيسى ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء حياً، واختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقى على جميع أصحابه.

وقوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم معنى ذلك ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ يعني قبل موت عيسى، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة (الإسلام الحنيفية) دين إبراهيم عليه السلام. عن ابن عباس ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: قبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام، وقال أبو مالك في قوله: ﴿إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: ذلك عند نزول عيسى وقبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به. وقال الحسن: قبل موت عيسى والله إنه لمحي الآن عند الله ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون. قال ابن جرير وقال آخرون يعني بذلك ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به﴾ بعيسى قبل موت صاحب الكتاب لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه. قال ابن عباس في الآية: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى. وعن مجاهد: كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته؛ قبل موت صاحب الكتاب.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: هي في قراءة أبي: «قبل موتهم» ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى، قيل لابن عباس: رأيت إن خر من فوق بيت؟

(١) قال الحافظ ابن كثير: هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس.

قال: يتكلم به في الهوي قيل: رأيت إن ضربت عنق أحدهم؟ قال: يلجلج بها لسانه، فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس، وكذا صح عن مجاهد وعكرمة وابن سيرين وبه يقول الضحاك. وقال السدي وحكاه عن ابن عباس، ونقل قراءة (أبي بن كعب): قبل موتهم. قال ابن جرير: وقال آخرون معنى ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت صاحب الكتاب. قال عكرمة: لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ.

ثم قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصححة القول الأول، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام. ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعت اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصراني الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه وأنه باق حي، وأنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة التي سنورها إن شاء الله قريباً فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم، ولهذا قال: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ أي قبل موت عيسى عليه السلام الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصراني أنه قتل وصلب. ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ أي بأعمالهم التي شاهدتها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض، فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام فهذا هو الواقع، وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلاً به فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له إذا كان قد شاهد الملك، كما قال تعالى في أول هذه السورة: ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ فلم يك يتفهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ الآية.

ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان

قال البخاري رحمه الله في (كتاب ذكر الأنبياء) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيراً لهم من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾^(١). وقال أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجتمعهما» قال وتلا أبو هريرة: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ الآية، فزعم حنظلة أن أبا هريرة قال: يؤمن به قبل موت عيسى، فلا أدري هذا كله حديث النبي ﷺ أو شيء قاله أبو هريرة.

(طريق أخرى): قال البخاري عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم وإمامكم منكم»^(٢).

(طريق أخرى): قال الإمام أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى

(١) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد.

ودينهم واحد وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن نبي بيني وبينه وإنه نازل، فإذا رأيتوه فاعرفوه، رجل مربع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان معضران^(١) كان رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنعار مع البقر، والذئب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم فيمكث أربعين سنة، ثم يثوفى ويصلي عليه المسلمون^(٢). وقد روى البخاري عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي». وفي رواية: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد».

(حديث آخر): وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق أو بديق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا فقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلوهم فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً ويقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث لا يقتنون أبداً فيفتحون (قسطنطينية) فينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم^(٣) في أهليكم فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فينما هم يعدون للقتال يسرون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة فنزل عيسى ابن مريم فيومهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيومهم دمه في حربه».

(حديث آخر): روى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة الباهلي قال: خطبنا رسول الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال وحذرناه فكان من قوله أن قال: «لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم عليه السلام أعظم من فتنة الدجال وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذر أمته الدجال وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، فإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم فأنا حجيح كل مسلم، وإن يخرج من بعدي فكل حجيح نفسه، وإن الله خليفتي على كل مسلم، وإنه يخرج من خلّة بين الشام والعراق، فيبعث يميناً ويعيث شمالاً، ألا يا عباد الله، أيها الناس فاثبتوا؛ وإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلي: إنه يبدأ فيقول: أنا نبي فلا نبي بعدي، ثم يثني فيقول: أنا ربكم ولا ترون ربكم حتى تموتوا. وإنه أعور وإن ربكم عز وجل ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب، وإن من فتنته أن معه جنة ونارا فناره جنة وجنته نار فمن ابتلي بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه برداً وسلاماً كما كانت النار برداً وسلاماً على إبراهيم. وإن من فتنته أن يقول للأعرابي: أرايت إن بعثت لك أمك وأباك أتشهد أني ربك؟ فيقول نعم، فيتمثل له شيطان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بُنَيَّ اتبعه فإنه ربك، وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فينشرها بالمشار حتى تلقى شقتين، ثم يقول انظر إلى عبدي هذا فإني أبعثه الآن ثم يزعم أن له رياً غيري، فيبعثه الله فيقول له الخبيث من ربك؟ فيقول: ربي الله، وأنت عدو الله الدجال، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك مني اليوم».

وإن من فتنته: أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنتبت، وإن من فتنته أن يمر بالحي فيكذبونه فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت، وإن من فتنته أن يمر بالحي فيصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنتبت، حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه، وأمدّه خواصر وأدرّه ضروراً، وأنه لا يبقى شيء من الأرض إلا ومطه وظهر عليه إلا (مكة) و(المدينة) فإنه لا يأتيهما

(١) مصبوغان بالمضّر وهو تراب أحمر.

(٢) خلفكم في أهليكم: أي طرق أهلهم وهم غائبون عنهم.

من نقب من نقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلثة حتى ينزل عند الظريب الأحمر عند متقطع السبخة فتخرج المدينة بأهلها ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فينفي الخبث منها كما ينفي الكير خبث الحديد، ويدعى ذلك اليوم (يوم الخلاص) فقالت أم شريك بنت أبي العكر: يا رسول الله فأين العرب يومئذ؟ قال: «هم قليل وجلهم يومئذ بيت المقدس، وإمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام، فرجع ذلك الإمام يمشي القهقري ليقدم عيسى عليه السلام فيضع عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول: تقدم فصل فإنها لك أقيمت، فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسى: افتحوا الباب فيفتح ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلى وتاج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هارياً، فيقول عيسى إن لي فيك ضربة لن تسيقني بها فيدركه عند (باب لُد) الشرقي فيقتله، ويهزم الله اليهود فلا يبقى شيء مما خلق الله تعالى يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء - لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة، إلا الغرقة فإنها من شجرهم لا تنطق - إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي فتمال أقتله».

قال رسول الله ﷺ: «إن أيامه أربعون سنة، السنة كتنصف السنة، والسنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وآخر أيامه كالشررة يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسى»، فقيل له: كيف نصلي يا نبي الله في تلك الأيام القصار؟ قال: «تقدرون الصلاة كما تقدرون في هذه الأيام الطوال ثم صلوا»، قال رسول الله ﷺ: «فيكون عيسى ابن مريم في أمي حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً، يندق الصليب ويذبح الخنزير ويضع الجزية ويترك الصدقة، فلا يسمى على شاة ولا بعير، وترتفع الشحاه والتباغض، وتنزع حمة كل ذات حمة حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره، وتفر الوليدة الأسد فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الأثناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتسلب قريش ملكها، وتكون الأرض لها نور الفضة، وتنبت نباتها كعهد آدم حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم، ويجتمع النفر على الرمان فتشبعهم، ويكون الثور بكذا وكذا من المال ويكون الفرس بالدرهيمات». قيل: يا رسول الله وما يرخص الفرس؟ قال: «لا تركب لحرب أبداً»، قيل له فما يفلي الثور؟ قال: «يحرق الأرض كلها، وإن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد يصيب الناس فيها جوع شديد، ويأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها، ثم يأمر الله السماء في السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر الله عز وجل السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض أن تحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء، فلا تبقى ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله». قيل: فما يعيش الناس في ذلك الزمان؟ قال: «التهليل والتكبير والتسيح والتحميد ويجري ذلك عليهم مجرى الطعام»^(١١).

(حديث آخر): وقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يخثي اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقته؛ إلا الغرقة فإنه من شجر اليهود»^(١٢).

(حديث آخر): وقال مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فحفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا، فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فحفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، قال: «غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ

(١) أخرجه ابن ماجه، قال الحافظ ابن كثير: غريب جداً من هذا الوجه ولبعضه شواهد من أحاديث أخر.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً.

حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط، عينه طافية كأنني أشبهه بعبد العزى بن قطن، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج من خلة بين الشام والعراق، فعات يميناً وعات شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا. قلنا: يا رسول الله فما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم». قلنا يا رسول الله وذلك اليوم الذي كسنة أتكفيناه فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره»، قلنا يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استديرته الريح، فيأتي على قوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبث، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروراً وأمدته خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليهم قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون محملين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتنبه كنوزها كيما سيب النحل^(١)، ثم يدعو رجلاً ممتلاً شاباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزئين رمية الغرض، ثم يدعو فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك. فبينما هو كذلك إذ بعث الله (المسيح ابن مريم) عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه كجمان اللؤلؤ، ولا يحل للكافر يجدر ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد، فيقتله، ثم يأتي عيسى عليه السلام قوماً قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقناتهم فحرز عبادي إلى الطور. وبعث الله (يأجوج وماجوج) وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحضر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى^(٢) كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأ زهمهم^(٣) وننتهم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يترك منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة^(٤). ثم يقال للأرض أخرجي ثمرك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويبارك الله في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي القنাম^(٥) من الناس فيبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فيقبض الله روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحر، فعليهم تقوم الساعة^(٦).

(حديث آخر): قال مسلم في صحيحه عن يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو - وجاءه رجل - فقال: ما هذا الحديث الذي تحدثت به؟ تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا، فقال: (سبحان الله) أو (لا إله إلا الله) أو كلمة نحوهما، لقد هممت أن لا أحدث شيئاً أبداً، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل امرأة عظيماً: يحرق البيت ويكون ويكون، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمي فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً، فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير - أو

(١) يماسيب النخل: ذكورها.

(٢) أي: قتلى.

(٣) راحتهم التئة المتغيرة.

(٤) الزلفة بالتحريك: المرأة.

(٥) الرسل بالتحريك: القطيع الجمع أرسال، واللقحة - بالكسر وبالفتح لغة - وهي ذات اللبن، والقنাম الجماعة.

(٦) أخرجه مسلم ورواه أحمد وأهل السنن.

إيمان - إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌ رزقهم، حسنٌ عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لبتاً ورفع لبتاً، قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطراً كأنه الطل - أو قال الظل - نعمان الشاك - فتبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: أيها الناس هلموا إلى ربكم **﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾**، ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: **﴿فذلك يوماً يجعل الولدان شيباً﴾** وذلك **﴿يوم يكشف عن ساق﴾**»^(١).

(حديث آخر): قال الإمام أحمد، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن الزهري، عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة الأنصاري، عن عبد الله بن زيد الأنصاري، عن مجمع بن جارية، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقتل ابن مريم المسيح الدجال بباب لد - أو إلى جانب لد». ورواه أحمد أيضاً عن سفيان بن عيينة من حديث الليث والأوزاعي، ثلاثتهم عن الزهري عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة، عن عبد الرحمن بن يزيد عن عمه مجمع بن جارية، عن رسول الله ﷺ قال: «يقتل ابن مريم الدجال بباب لد»، وكذا رواه الترمذي عن قتية عن الليث به، وقال: هذا حديث صحيح. قال: وفي الباب عن عمران بن حصين ونافع بن عتبة وأبي برزة وحذيفة بن أسيد وأبي هريرة، وكيسان، وعثمان بن أبي العاص، وجابر وأبي أمامة، وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسمرة بن جندب والنومس بن سمان، وعمرو بن عوف، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم. ومرواه برواية هؤلاء ما فيه ذكر الدجال، وقتل عيسى ابن مريم عليه السلام له.

(حديث آخر): وقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج ياجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق - أو تحشر - الناس، نبت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا»^(٢). وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة عيسى ابن مريم من تاريخه عن بعض السلف: أنه يدفن مع النبي ﷺ في حجرته، فإله أعلم.

وقوله تعالى: **﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾**، قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله، وأقر بعبودية الله عز وجل، وهذا كقولته تعالى في آخر سورة المائدة: **﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس﴾** إلى قوله: **﴿العزیز الحكيم﴾**.

﴿قِيلَ مَنْ الْيَهُودُ فَأُدُّوا حَرَمَاتُ عَلَيْهِمْ حَبِطَتْ لَهُمْ بَرَكَاتُهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً﴾ **﴿وَأَخَذِمُ الزُّبُرَ وَقَدْ نَبَّأَهُمْ عَنْهُ وَأَكْبَهُمْ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ الْبَقْلَ وَأَمْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أليماً﴾** **﴿لَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ فِي الْغَيْبِ مِنْكُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ وَمَا آتَاهُ مِنْ قَبْلِهِ وَاللَّيْقِينِ السَّكْرَةَ وَالْمُنْزُوكَ الرَّسْمَةَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَاللَّذِينَ آخَرُ أَوْلِيَّتَهُمْ سَتُؤْتِيهِمْ لِقَاءَهُمْ عَلَيْهِ﴾**.

يخير تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبه من الذنوب العظيمة حرم عليهم طيبات كان أهلها لهم، كما قال ابن أبي حاتم عن عمرو، قال: قرأ ابن عباس: **﴿طيبات كانت أحلت لهم﴾** وهذا التحريم قد يكون (قدرياً) بمعنى أنه تعالى قبضهم لأن تأولوا في كتابهم، وحزفوا وبدلوا أشياء كانت حلالاً لهم، فحرموها على أنفسهم تشديداً منهم على أنفسهم وتضييقاً وتنطعاً، ويحتمل أن يكون (شريعياً) بمعنى أنه تعالى حرم عليهم

(١) أخرجه مسلم والنسائي.

(٢) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن.

موسى، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ إلى آخر الآيات. ثم ذكر فضائلهم ومعابهم وما كانوا عليه وما هم عليه الآن من الكذب والافتراء، ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين، فقال: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾، إلى قوله: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام، وسنذكر ترجمة كل واحد من هؤلاء الأنبياء عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام عند قصصهم من سورة الأنبياء إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

وقوله تعالى: ﴿ورسلنا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلنا لم نقصصهم عليك﴾، أي من قبل هذه الآية، يعني في السور المكية وغيرها وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن وهم: (آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهرون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى وكذا ذو الكفل، عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد ﷺ) وقوله: ﴿ورسلنا لم نقصصهم عليك﴾ أي خلقاً آخرين لم يذكرنا في القرآن، وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين، والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل، وذلك فيما رواه ابن مردويه رحمه الله في تفسيره عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً»، قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير»، قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: «آدم»، قلت: يا رسول الله نبي مرسل؟ قال: «نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً». وقد روي هذا الحديث من وجه آخر عن صحابي آخر، فقال ابن أبي حاتم عن أبي أمامة، قال: قلت: يا نبي الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر، جم غفيراً».

وقوله تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾، وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة، ولهذا يقال له الكليم، وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش، فقال: سمعت رجلاً يقرأ ﴿وكلم الله موسى^(١) تكليماً﴾، فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر. قرأت على الأعمش، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب، وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طالب، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾، وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك، لأنه حَزَفَ لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من الممتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحداً من خلقه كما روينا عن بعض الممتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾، فقال له: يا ابن اللخناء! كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾؟ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل. وقد روى الحاكم في مستدركه وابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «كان على موسى يوم كلمه ربه جبة صوف، وكساء صوف، وسراويل صوف، ونعلان من جلد حمار غير ذكي».

وقوله تعالى: ﴿ورسلنا مبشرين ومنذرين﴾ أي يشرون من أطاع الله، واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالمعاقب والمذاب، وقوله: ﴿ثلاثاً يكون للثامن على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾، أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والندارة، وبين ما يحبه ويؤضاه مما يكرمه ويأباه، ثلاثاً يبقى لمعتذر عذراً، كما قال تعالى: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ريتا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾، وكذا قوله: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ الآية، وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل

(١) قرأ هذا الرجل لفظ الجلالة بالنصب وموسى بالرفع.

ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين، وفي لفظ آخر: «من أجل ذلك أرسل رسوله وأنزل كتبه».

﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَاللَّاتِيكَةَ يَتَّبِعُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بُعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَدَّلُوا لَهُمْ يَكْفُرُ اللَّهُ يُغْفِرُ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ عَلَىٰ آلِهِمْ بِئِيمًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ يَوْمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

لما تضمن قوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك﴾ إلى آخر السياق إنبات نبوته ﷺ والرد على من أنكر تبوته من المشركين وأهل الكتاب قال الله تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾، أي وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم الذي: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، ولهذا قال: ﴿أنزله بعلمه﴾، أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به، كما قال تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ وقال: ﴿ولا يحيطون به علمًا﴾.

وقال ابن أبي حاتم عن عطاء بن السائب قال: أقراني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ قوله: ﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا﴾. قوله: ﴿والملائكة يشهدون﴾ أي يصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك مع شهادة الله تعالى بذلك، ﴿وكفى بالله شهيدًا﴾ قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقال لهم: «إني لأعلم والله إنكم لتعلمون أني رسول الله»، فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾ أي كفروا في أنفسهم فلم يتبعوا الحق، وسعوا في صد الناس عن اتباعه والافتداء به، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه وبعدوا منه بعداً عظيماً شامعاً. ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بأياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك وبالصد عن سبيله، وارتاب مآثمهم، وانتهاك محارمه بأنه لا يغفر لهم ولا يهديهم طريقاً، أي سبيلاً إلى الخير ﴿إلا طريق جهنم﴾، وهذا استثناء منقطع ﴿خالدين فيها أبدًا﴾ الآية.

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم﴾، أي قد جاءكم محمد صلوات الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق والبيان الشافي من الله عز وجل، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيراً لكم، ثم قال: ﴿وإن تكفروا فإن ما في السموات والأرض﴾ أي فهو غني عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم كما قال تعالى: ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾، وقال ههنا: ﴿وكان الله عليماً﴾ أي بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿حكيمًا﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لَا تَمَلُّوا فِي وَيُنصَحُكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْنَاهُ الْقَلَمَ إِذْ مَرَّمْ رُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا لَنَنصُرُنَّهُ إِنَّمَا هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ وَحِيدٌ مَّشْكُوتٌ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن رُجم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال الله تعالى: ﴿تخذلوا أحيارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ الآية، وقال الإمام أحمد عن ابن عباس عن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله». وهكذا رواه البخاري عن الزهري به ولفظه: «فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»، وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن رجلاً قال: يا محمد، يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس عليكم بقولكم، ولا يستهويكم الشيطان: أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل» تفرد به من هذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً، وتنزهه وتقدس وتوحد في سؤده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، ولهذا قال: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ أي إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه، قال له كن فكان، ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفض فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذنه عز وجل، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت - حتى ولجت فرجها - بمنزلة لقاح الأب والأم، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه، لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان، والروح التي أرسل بها جبريل. قال الله تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾، وقال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾، وقال تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ إلى آخر السورة. وقال تعالى إخباراً عن المسيح: ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه﴾ الآية. وقال قتادة: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ هو كقوله: ﴿كن فيكون﴾. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال: سمعت شاذ بن يحيى يقول في قول الله: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى، وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله: ﴿ألقاها إلى مريم﴾ أي أعلمها بها كما زعمه في قوله: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه﴾ أي يعلمك بكلمة منه، ويجعل ذلك كقوله تعالى: ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾، بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم فنفض فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام، وقال البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». وقوله في الآية والحديث: «روح منه»، كقوله: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ أي من خلقه ومن عنده وليست «من» للتبويض كما تقول النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة، بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى، وقد قال مجاهد في قوله: ﴿وروح منه﴾ أي ورسول منه، وقال غيره: ومحبته منه، والأظهر الأول، وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله: ﴿هذه ناقة الله﴾، وفي قوله: ﴿وطهر بيتي للطائفين﴾، وكما روي في الحديث الصحيح: «فأدخل علي ربي في داره»، أضافها إليه إضافة تشريف وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد.

وقوله تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد أحد لا ولد له ولا صاحبة، واعلموا

وثيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ أي لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهذه الآية والتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، وكما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ الآية. وقال في أولها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية، والنصاري عليهم لعائن الله من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقد إلهاً، ومنهم من يعتقد شريكاً، ومنهم من يعتقد ولدأ، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصاري لاتفقوا عن أحد عشر قولاً.

ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو (بترك الإسكندرية) في حدود سنة أربعمئة من الهجرة النبوية، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم - وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة - وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا يضببط ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفين أسقفاً، فكانوا أحزاباً كثيرة كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، ومائة على مقالة وسبعون على مقالة وأزيد من ذلك وأنقص، فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلثمائة ثمانية عشر نفر وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها، وكان فيلسوفاً داعية، ومحقق ما عداها من الأقوال وانتظم دست أولئك الثلثمائة والثمانية عشر وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتباً وقوانين وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقدها ويمجدونها عليها، وأتباع هؤلاء هم (الملكانية)، ثم إنهم اجتمعوا مجعماً ثانياً فحدث فيهم (اليقوية)، ثم مجعماً ثالثاً فحدث فيهم (النسطورية) وكل هذه الفرق ثبتت الأقاليم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم، هل اتحدوا أو ما اتحدوا، أو امتزجوا أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات، وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة، ولهذا قال تعالى: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ أي يكن خيراً لكم، ﴿إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد﴾ أي تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً. ﴿له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ أي الجميع ملكه وخلقه وجميع ما فيها عبيده، وهم تحت تديره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد كما قال في الآية الأخرى: ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئا إدا﴾ الآيات.

﴿لَنْ يَسْتَكْفَرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَيَكْفِرْ بِخُرْبِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَفْكَرُوا وَلَيْسَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ فِي ذُرِّي أَلْفٍ وَلَا تَعْبِيرٌ ﴿١٧٦﴾ .

قال عطاء عن ابن عباس قوله: ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ﴾ لن يستكبر، وقال قتادة: لن يحتشم ﴿المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾، وقد استدلك بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ وليس له في ذلك دلالة، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستكفاف هو الامتناع، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح، لهذا قال: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾، ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل، وقيل: إنما ذكروا لأنهم اتخذوا آلهة مع الله كما اتخذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده وخلقه ممن خلقه، كما قال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾ الآيات، ولهذا قال: ﴿ومن يستكفر عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل، الذي لا يجور فيه ولا يحيف، ولهذا قال: ﴿فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾، أي فيعطيههم من الثواب

على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه .

وقد روى ابن مردويه عن عبد الله مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، أجورهم، قال: «أدخلهم الجنة»، ﴿ويزيدهم من فضله﴾ قال: «الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في دنياهم»، وهذا إسناد لا يثبت، وإذا روي عن ابن مسعود مرفوعاً فهو جيد، «وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا» أي امتنعوا عن طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين حفيزين ذليين، كما كانوا ممتنعين مستكبرين .

﴿يَأْتِيْنَا أَنفُسًا مَّذْمُومَةً وَنُحُورًا مَّسْتَقِيمَةً وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ أَنزَلْنَاهَا بِقُوَّةٍ وَأَنصَحُوا بِرُؤْيَا فِكْرِيخْلِهِمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ وَلِيَهُمْ سِرًّا مَسْتَقِيمًا ﴿١٧٢﴾﴾ .

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس ومخبراً بأنه قد جاءهم من برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر والحجة المزيطة للشبه، ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ أي ضياء واضحاً على الحق. قال ابن جريج وغيره: وهو القرآن. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي جمعوا بين مقامى العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم، وقال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة، ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورقعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ أي طريقاً واضحاً قاصداً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات، وفي حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «القرآن صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين»، وقد تقدم الحديث بتمامه في أول التفسير، والله الحمد والمنة .

﴿سَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْكَلَالَةِ إِنِ انزَلْنَا عَلَيْكَ لِكُلِّ ذِي وَلَدٍ وَلَهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكُوا وَهُوَ بِرِثَتِكُمْ إِنذَانٌ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَوَلَدٌ فَإِن كَانَتَا أَثْنَيْنِ فَلَهُمَا الشَّانَانِ بِنَا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ إِنَّ اللَّهَ لَكَنُفٌ آخِزٌ أَن تُضَلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ .

قال البخاري عن أبي إسحاق قال: سمعت البيراء، قال: آخر سورة نزلت برامة، وآخر آية نزلت يستفتونك. وقال الإمام أحمد عن محمد بن المنكدر، قال سمعت جابر بن عبد الله قال: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل، قال: فتوضأ ثم صب علي - أو قال صبوا عليه - فعملت فقلت: إنه لا يرثني إلا كلالته فكيف الميراث؟ فأنزل الله آية الفرائض. وفي بعض الألفاظ: فنزلت آية الميراث ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ الآية^(١). وكان معنى الكلام والله أعلم: يستفتونك عن الكلاله ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهَا﴾، فدل المذكور على المتروك. وقد تقدم الكلام على الكلاله واشتقاقها، وأنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه، ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد. ومن الناس من يقول: الكلاله من لا ولد له كما دلت عليه هذه الآية: ﴿إِن مَرَرْتُمْ هَٰؤُلَاءِ قُلُوا لَهُمْ سَلَامًا وَلَهُمْ سَلَامٌ مِّنَ اللَّهِ وَمِنْ رَّبِّهِمْ قُلْ أَسْكَلِكُمْ حَكْمَ الْكَلَالَةِ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرٍ بِنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّهُ قَالَ: ثَلَاثٌ وَدَدْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَهْدَ إِيْنَا فِيهِمْ عَهْدًا نَتَهَىٰ إِلَيْهِ: الْجَدُّ، وَالْكَالَالَةُ، وَبَابٌ مِّنْ أَبْوَابِ الرِّبَا^(٢). وعن عمر

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) يعني ما نزل آخر سورة البقرة من آيات الربا وقد نزلت بعد آية آل عمران: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ فهل الربا فيهما واحد على القاعدة، أم هو في الأخيرة أعم؟ استشكل عمر رضي الله عنه والجمهور على الثاني واستشكله في إرث الجد والكلالة أشهر وأظهر.

قال سألت رسول الله ﷺ عن الكلالة فقال: «يكفيك آية الصيف» فقال: لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلي من أن يكون لي حمر النعم^(١). وكان المراد بآية الصيف أنها نزلت في فصل الصيف والله أعلم، ولما أرشده النبي ﷺ إلى تفههما فإن فيها كفاية، نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها، ولهذا قال: فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلي من أن يكون لي حمر النعم.

وقال ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال: سأل عمر بن الخطاب النبي ﷺ عن الكلالة، فقال: «أليس قد بين الله ذلك؟» فنزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ الآية. قال قتادة: وذكر لنا أن أبا بكر الصديق قال في خطبته: ألا إن الآية التي نزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد، والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والإخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله مما جرت الرحمة من العصبية.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْرٌ هَلَكٌ﴾ أي مات، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ كل شيء يفسى ولا يبقى إلا الله عز وجل، كما قال: ﴿كُلٌّ مِنْ هَلِيبِهَا فَإِنْ بَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وقوله ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد، وهو رواية عن عمر بن الخطاب رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه، ولكن الذي يرجع إليه هو قول الجمهور، وقضاء الصديق أنه الذي لا ولد له ولا والد. ويدل على ذلك قوله: ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن، ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية.

وقال الإمام أحمد عن زيد بن ثابت أنه سئل عن (زوج وأخت لأب وأم) فأعطى الزوج النصف والأخت النصف، فكلم في ذلك، فقال: حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك، وقد روي عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتاً وأختاً إنه لا شيء للأخت لقوله: ﴿إِنْ أَمْرٌ هَلَكٌ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ قالوا: فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً فلا شيء للأخت، وخالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسألة للبنت النصف بالفرض، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب، بدليل غير هذه الآية، وهذه الآية نصت أن يفرض لها في هذه الصورة، وأما وراثتها بالتعصيب، فلما رواه البخاري عن الأسود، قال: قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت والنصف للأخت.

وفي صحيح البخاري أيضاً عن هزيل بن شرحبيل قال سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت فقال: للابنة النصف وللأخت النصف وأت ابن مسعود فسئلتني، فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ النصف للبنت ولبنت الابن السدس تكلمة الثلثين وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود: فقال: لا تسألوني ما دام هذا الخبر فيكم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله وليس لها ولد أي ولا والد، لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج أو أخ من أم، وصرف الباقي إلى الأخ لما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «الحقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض فلاولي رجل ذكر». وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانُ مِمَّا تَرَكَ﴾، أي فإن كان لمن يموت كلاله أختان فرض لهما الثلثان وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما، ومن

(١) قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد إلا أن فيه انقطاعاً.

ههنا أخذ الجماعة حكم البنين كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾. وقوله: ﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ هذا حكم العصابات من البنين وبني البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين.

وقوله تعالى: ﴿يبين الله لكم﴾ أي يفرض لكم فرائضه، ويحد لكم حدوده، ويوضح لكم شرائعه.

وقوله: ﴿أن تضلوا﴾ أي لثلاثا تضلوا عن الحق بعد البيان، ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده وما يستحقه كل واحد من القربات بحسب قربه من المتوفى.

وقال ابن جرير عن سعيد بن المسيب: أن عمر كتب في الجدة والكلالة كتاباً، فمكث يستخير الله يقول: اللهم إن علمت فيه خيراً فأمضه، حتى إذا طعن دعا بكتاب فمحي ولم يدرك أحد ما كتب فيه، فقال: إني كنت كتبت كتاباً في الجدة والكلالة، وكنت أستخير الله فيه، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه. قال ابن جرير وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر، وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: هو ما عدا الولد والوالد. وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين، وهو مذهب الأئمة الأربعة والغفهاء السبعة وقول علماء الأمصار قاطبة، وهو الذي يدل عليه القرآن كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم﴾ والله أعلم.